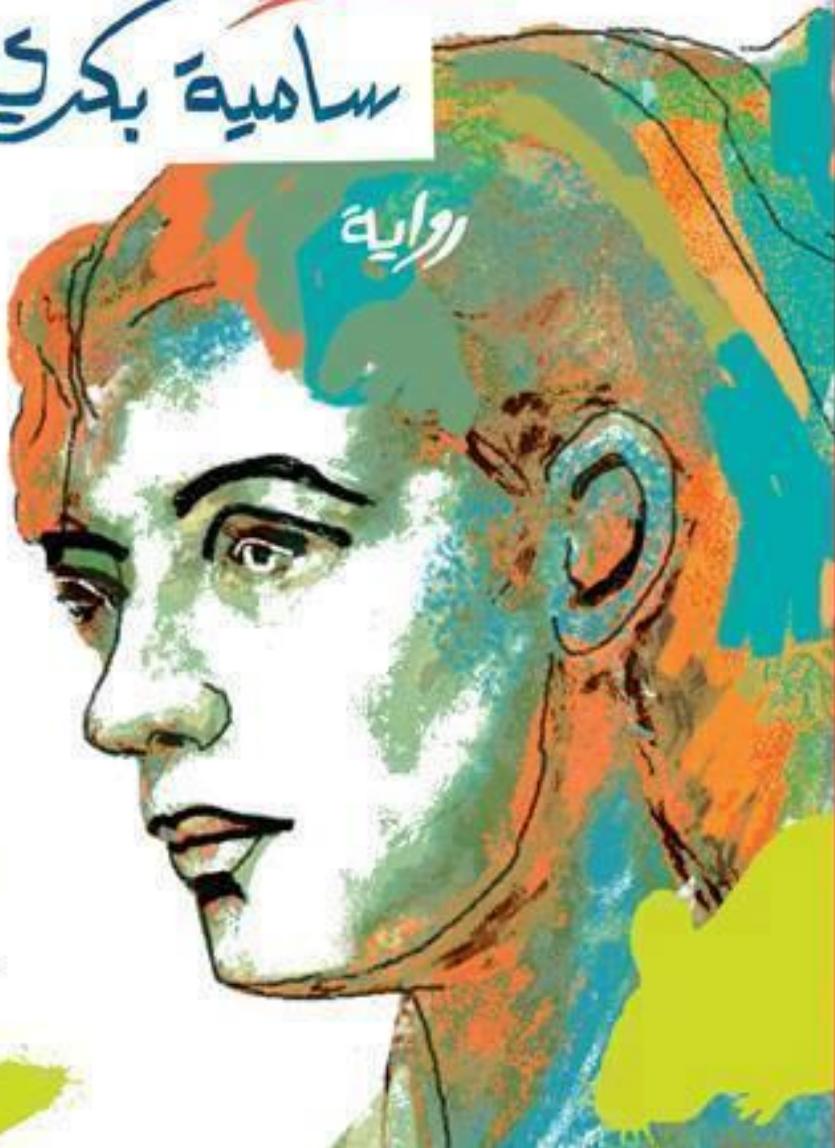


وَنَسَة

سامية بكري

رواية



زواقد

للشؤون الثقافية

بكري، سامية

ونسة / سامية بكري

٢٠١٤ ط ١، القاهرة. روافد للنشر والتوزيع

٩٩ ص ٢١٤ سم

١-رواية

٢-العنوان

أ - المؤلف

رقم التصنيف: ٨١٣.٠٠٨

رقم الإيداع: ٢٠١٤ / ٢٠٧٣

التقييم الدولي: ٤ - ٠٢٦ - ٧٥١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة للناشر



روافد للنشر والتوزيع

+٢٠١٢٢٢٣٥٠٧١

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: غادة خليفة

أحمد عبد المقصود: الإخراج الداخلي

ونسفة

رواية

سامية بكري



إهداء

إلى ورشة الحكاية وما فيها

ومحمد عبد النبي

وظفلي مريم وسيف

شكر

اشكر الاعزاء لمساعدتي بملاحظاتهم القيمة بترتيب

قراءتهم للرواية

الكاتب والروائي محمد داود

الكاتب والناقد مدحت صفوت

الكاتب والسيناريست باسم صلاح الدين

الصحفي والروائي محمد طاهر

الشاعر عاطف عبد العزيز





الفصل الأول

كان استمرار وجودي في هذه الشقة قد أصبح محل تفكير، فقد وجدت نفسي وحدي، بعد أن تسرّبت من ثقب السلك الذي يمتد على شبّاك المنوّر بينما زاغ أخي الأكبر، ونطّ في مطبخ شقة أخرى. هكذا كادت الوحدة أن تقضي عليّ، كان البيت خاليًا إلا من فتاة ثلاثينية نصف جميلة تُدعى "ونسة"

رغم الهدوء الذي يبدو عليه المكان إلا أن المساء غالبًا ما يحمل إلى أذنيّ أصواتًا غريبة؛ موسيقى شعبية وأغانٍ رومانسية، وأحيانًا قرآن كريم تتلوه بصوتها المتحشرح قليلًا، وكأنها مصابة بنوبة برد لا تشفى أبدًا.

عشرة هذه الفتاة صعبة، إنها تتناول القليل من الطعام، وبقاياها لا تسمح لي أن أسمن، أو أسد جوعي، يبدو أن وحدتها جعلتها أقل شهية للطعام، لكن ماذنيّ أنا؟

قبل أن يستقر بي المقام بجوارها دخلت شقة أخرى بذات العقار، لكن والحق يقال رغم وفرة اللانشون، وروائح السمك والفراخ التي لا تنقطع عن الشقة وصاحبها المظلّظة إلا أنني لم أرتح نفسيًا، آه والله يا جماعة لم أرتح نفسيًا، لم أكن أنام بفعل سهر السيدة "ليلاتي" وحناقاتها مع زوجها السكرّير، صاحب المغامرات مع نسوان أجمل منها كما يقول، وأكثر قباحة كما تؤكد هي.

كانت الميزة الوحيدة في شقة أبله اعتماد كما يسئونها في العمارة هي أنهم ملهيون عني في مشاكلهم، لا أحد يشعر بي، أو يفكر في مطاردي أو إبادي أو اصطيادي، كانت الأمور تسير بشكل جيد، إلى أن لمحني المفعوص ابنهم ذو السنوات الستة، وجرى صارخاً مدعوراً: فأر فأر، وكأني أسد سيهجم عليه ويلتهمه، وما كان لي خيار إلا القفز من شبك المطبخ المفتوح لحسن حظي وقتها، وعبر رحلة شاقة على المواسير وصلت إلى مكاني هذا.

رائحة المطبخ تتسلل إلى أنفي حاملة العفن الذي كوّنته خلال شهر بقايا الأطعمة، وعلب التونة الفارغة، والأطباق المتسخة، وسلّة القمامة فالشقة هنا تضرب تقلب كما يقول البشر.

لكن رغم ذلك هناك إحساس ما ربطني بالمكان، ربما كان دفء أنفاس هذه الفتاة الغريبة التي تمتص برودة السيراميك المبلّطة به شقتها، ربما كانت غفلتها عني وانشغالها الدائم بقراءة روايات عبير، وأجاثا كريستي، ومشاهدة المسلسلات التركي وبرامج الموضة، وربما كانت وحدتها وبساطة حياتها.

وربما كان احتياجي لونيس مسالم مثلها، أي نعم لقد شعرت والله بذلك منذ أن وطأت قدماي المكان، صدّقوا ذلك، أو مصمصوا شفاهكم عجباً وسخرية.

ما علينا فقد كان القدر يرتّب لي معها موعداً، كان ذلك في ليلة شديدة البرودة من الشتاء الفائت؛ وقتها كنت أفكر في الخروج قليلاً والعودة مرة أخرى لكسر الملل، لكنني فوجئت بها تدخل إلى حيث

مخبأى المفصّل فقد قرّرت بسلامتها أن تبدأ تنظيف المطبخ، لكنها سرعان ما تراجعَت بضجر، فتحت باب دولاب المطبخ ثم حاولت إشعال سيجارة من علبة قديمة في متعلقات أبيها الراحل منذ شهرين فلسعت إصبعها، أفاقت على رائحة شياط جلدّها الملسوع فصرخت وتركت المطبخ.

قبل أن تمتد يدها لتفتح جهاز التلفزيون فاجأها أصوات حركة في المطبخ، سمعت طبقاً يقع من فوق كومة المواعين المتسخة على حافة الحوض فلم تهتم. بعد ثوانٍ سمعت درفة دولاب المطبخ الخشبية المخلوعة تقع على الأرض، اقتربت من المكان بخطوات حذرة، محاولة تحديد مصدر الحركة. أضاءت النور، لمحتني هناك داخل إناء الشورية الخاص بأختها هند، التي راحت بيت العدل منذ سنة.

كنت وقتئذٍ فأراً قليل الخبرة، يحاول أن يخرج متشبثاً بمجران الإناء فتزلق أطرافه، يكرّر المحاولة من جانب آخر، فيفشل ويعود ليحاول مرة أخرى، كنت ألفت وأدور داخل المجر متحيراً.

ياااه! سأتذكر تلك اللحظات جيداً عندما يأتي رجال حملة التطهير إلى شقة ونسة.

مزيج من القرف والشفقة شعرت به عندما رأيتني داخل إناء الشورية، أخذت تتألمني، شردت قليلاً، وتذكّرت أمها الراحلة منذ عامين صائدة الفئران الأولى في المنطقة، كم كانت تعذبها رؤية مخلوق ضعيف محبوساً بالمصيصة الصدئة، ينتظر مصيره.. الموت غرقاً في جردل القمامة، كثيراً ما غافلت أمها وهي طفلة، وألقت ببقايا الطعام

إلى أحدهم وهي تجري بعيداً خشية البراغيث أو الطاعون، الذي يحمله الفأر كما كانت أمها تردد.

تناولت بعض بقايا الجبن الناشف من أحد الأطباق، وألقت به إليّ، وأتبعته بكسرة من العيش الناشف.

لم ألقَ بالألما قذف إليّ.....رحت أنظر إليها متوسلاً وهي تتأملني ثم تشرّد بعينيها شبه الحولاء ربما بسبب الإرهاق أو السهر. وهكذا أخذت أغافلها ثم أعود لمحاولة الخروج من الإناء إلى أن انقطعت موسيقى تتر المسلسل التركي القادمة من بيوت الجيران حوار العيون بيننا، فتركنتي وجرت إلى التليفزيون.

كان قد أتى إليها معدّباً نادماً، وقف تحت شرفتها ومعه الفرقة الموسيقية يرجوها أمام الجميع ويشهدهم ألا حياة له بدونها، تعتذر "نور" بحزم وتقول إن حياتها معه صارت مستحيلة، تبكي ونسة، وتروح إلي الشاشة، تترجى نور "ليه كده يابنت الناس ربنا يهديكي؟" وهكذا أخذت تقترب أكثر من الشاشة تاركة الكنبه لتتأمل عيون مهند، شعره الذهبي الناعم، رقبته، صدره، وجسده الطويل الممشوق. تحسّست جسدها الذي هاجمته اللذة ومهند يغادر الشاشة تارگاً نور، وبضغطة على زر الكهرباء غرقت الصالة في ظلام لا يخفّفه إلا الضوء الصادر من الشاشة.

حملها مهند إلى الكنبه، حيث تنميلة حلوة ترخيها، ورعشات وآهات كانت تصدرها والبطل التركي يفك أزرار بيجامتها الساتان صينية الصنع، فوجئ بحجم نهديهما النافرين كحبي رمّان طازجتين؛ دورهما معاً بيديه، كادت تصل إلى الذروة فترك نهديهما وسألها ببحث: مالك حبيبي؟ ماتك مبسوط؟ تعلقت برقبته وجذبتته إلى الكنبه. سمعت جرس الباب فانفضت جالسة، ارتدت ملابسها بسرعة وحففت عرقها بطرف كسوة الكنبه، سارت إلى الباب ورائحة إفرازاتها تزيدها شبقاً.

- مين على الباب؟

- أنا أم هدير، والنبي وطّي التليفزيون شوية، عمك الحاج مصدّع.

أبو هدير نظراته تعريها من ملابسها، وتفرك جسدها فرغاً، لم يكن يضايقها من أمر تلك النظرات سوى اتجاهها لنصفها الأسفل، لو كان ينظر فقط إلى عينيها أو شفتيها كما يفعل مهند مع نور! لم تكن تراه محدّقاً في حدودها ولا رسمه حاجبيها والنغزة في ذقنها ولا في السمار الذي يندلق من رقبته إلى فتحة الصدر ولا بحّة صوتها، كل ذلك لا يعنيه.

تنظر إلى جسد أم هدير المتهدّل بمنطقة الصدر المكتنز بالشحم في الأرداف، لتعي أنه فقط يريد الخروج قليلاً من حوزة امرأة، تركت سنون الزواج على جسدها آثاراً لا تحاول محوها، إلى جسد أكثر شباباً ونحافة، تبكي ونسة وتكره جسدها الذي يقف حائلاً بينها

وبين أن يرى أحدهم وجهها أو حلاوة قلبها أو طيبة عينيها أو جدعتها.

تبكي طويلاً وتقبل على الطعام حتى يمتلأ جسدها لكنها تصبح أكثر إثارة، فتتوقف عن الأكل حتى لا تثير النظرات الجائعة، ترتدي العباءة السوداء في خروجاتها القليلة لتخفي معالم جسدها فلا يرى أحد تفاصيله نحف أو سمن، وهكذا يظل هذا الجسد لغزاً، إنه مفتاح شهوتها ومصدر شعورها باللذة ليلاً وهي تحلم بأن رجلاً وسيماً يداعبه، وهو نفس الجسد الذي تمقت نظرات الرجال الشهوانية له.

تفكر كثيراً في معنى الحب لدى الرجال، ولماذا لم يكن أبيها يأتي لأمها بهدية إلا وترتدي بعدها قميص النوم الوردي، وتسوقها وإخوتها إلى النوم مبكراً.

تذهب إلى فراشها وتتخيل ما يحدث في حجرة نومهما، تطرب لموسيقى ناعمة وهمية قادمة من هناك، فأبوها يراقص أمها تانجو، يقتربان ويتعدان عن بعضهما في خطوات رشيقة، ثم تميل على ذراعه، فيلتقطها في نهاية الرقصة، و يقبلان بعضهما حتى الصباح.

تشرد وتؤكد لها أفكار بنت الثامنة أنها ستجدهما في الصباح سمن على غسل، وأن الخناقة اليومية على زرار قميص مقطوع، أو فردة جورب مفتقدة لن يكون لها مكان أو معنى.

يأتي الصباح بما لا تشتهي ونسة؛ فهي هي الأم تصحو مذعورة مهوَّشة الشعر على صوت المنبِّه لتعدّها وأخوتها للذهاب إلى المدرسة، وتجهّز لقمة الإفطار وكوب الشاي للأب.

القميص الوردي يبدأ مهمة اختزان روائح الأطعمة، فقد نسيت أن تخلعه أو ترتدي فوقه مريلة مطبخ، وكحل عينيها الأسود يسيح تحت جفنها السفلي قاصداً تلك التجاعيد الخفيفة التي يحفرها السهر والهلم بتأنٍ، فيسرع في إبرازها للعيان.

الأب يصحو هو الآخر كعادته، لا يبدو عليه أنه كان يرقص التانجو، ويقبّل حبيبته طوال الليل، والأنكى من ذلك أنه يتمخّط في الحمام فيصل صوته إلى مسامع الجيران.

بعد أن ينصرف الأب والعيال لا بد أن أمها تخرج إلى الحَمَّام لتنال فترة استرخاء دافئة، تتخيلها ونسة في البانيو كبطلات الأفلام تداعب رغاوي الشامبو برفق وتمسح عن جسدها بدلال آثار ليلة غرام ساخنة.

عادت ونسة ذات مرة من طريقها إلى المدرسة مدّعية أنها نسيت القلم الجاف لترى أمها في البانيو، لكن الأم فتحت لها الباب وهي تتشاءب بغضب، وكالت لها الشتائم التي تبدأ من مقصوفة الرقبة وتنتهي بالبلهاء.

عادت إلى طريق المدرسة وهي تتمنى أن تتزوج حتى لا تفعل ما تفعله أمها بنفسها.

صدمتها في أمها تذكرها بصدمتها في جارّهم العروس التي حضرت خطوبتها فأثما جميلة بالمساحيق وتسريحة الشعر والفستان حتى خيّل إليها أنها بخطوبتها تلك ستظل على هذه الهيئة من الفتنة والجمال الباهر

في الصباح ذهبت ونسة إلى بيت أم كريمة العروس لكي تسترد طاقم الأكواب الذهبي الذي استعاروه من أمها ليلة الخطبة، فوجدت كريمة جالسة إلى الطبلية منفوخة العينين، منزوعة المساحيق، ملمومة الشعر، تتناول مع إخوتها الفول والطعمية، وتلتهم قطع الباذنجان بشغف، يكاد يسيل الخل بالشطّة من جوانب شفيتها عوضاً عن أحمر الشفاة الذي خلّب لب ونسة ليلة الخطوبة.

ظلت ونسة شاردة تفكر إلى أن سمعت تتر نهاية المسلسل فانتبهت قليلاً، و عادت لتبحث عن شهورتها التي لم تكتمل يوماً، لم تجدها على الكنبه، ولا بين فخذيها.

دخلت إلى السرير لتنام، ضرستها أصوات مضغ وطرقعة الخبز الجاف الذي قرّرت أخيراً أن آكله.

اقتحمت عليّ المطبخ، الطعام في فمي، والطرقعة لا تتوقف، قررت أن تغرقني بالماء لتتخلص مني نهائياً.

اللعنة على قلبها "العلق"! هكذا أسرّرت لنفسها وهي تراقب صنوبر المياة وهو يمطرنى.

كانت سخونة الماء آخذة في الارتفاع وهي تراقبني، حاولت الخروج للمرة الأخيرة فانتفضت بلسعة حارقة.

لم تتحمل أن يشعر مخلوق بكل هذا الأذى مجرد أنه فأر، شردت قليلاً بعد أن أوقفت المياه وراحت تفكر في القرار الذي ستتخذه حيالي فيما كنت أرتعش هلعاً وأتلفت حولي باحثاً عن مخرج.

قالت لنفسها: لماذا لا أحرب أن أتركه لحاله؟ أطلقه على درجات السلم لينزل إلى الشارع، أو أضعه في كيس بلاستيكي أسود وألقي به بجوار أقرب صندوق للقمامة؟

ثم نظرت إلى بحنان لم أفهمه في البداية، وقالت لكنه هنا منذ مايقرب من خمسة ساعات، ويبدو لي رغم خوفي منه مسلياً، على الأقل كسر وحدتي وجعلني أفكر في مخلوق آخر يقاسمني المكان.

تراجعت قليلاً أمام خاطر الإبقاء عليّ، فقد هاجمتها فكرة الطاعون والبراغيث، ثم عادت تتذكر أن هناك فئران بيضاء يستخدمونها لإجراء التجارب الطبية فهل هناك فرق كبير يا ترى؟

أوقفت تيار أفكارها حين لاحظت أنني قاربت على الموت برداً وهلعاً، حاولت إنقاذي فلفقتني بغطاة المطبخ، وخرجت بي إلى الصالة.

ملّست على رأسي و فكّرت: لماذا يقرف الناس من الفئران؟ ويربون الكلاب النجسة والقطط الخائنة كما كانت تقول أمها والسلاحف وحتى النسانيس القبيحة؟

نظرت إليّ متساءلة : دكر ولا نناية؟

في الصباح استيقظت ونسة، ومازال صوت أمها في أذنيها ولا تدري إن كانت تحلم أم تتذكر. فقد رأت أمها تصطحبها مع أم كمال صاحبة المقهى إلى مستشفى الحوض المرصود بالسيدة زينب حيث تسكن؛ شافت نفسها في السادسة بصفائر طويلة، هناك شكت أمها للطبيب من بقع بنية في وجهها. وفي العودة أخذتها المرأتان إلى الرجل صاحب الفئران البيضاء، التي تكشف المستقبل، وتعرف الحظ أمام المستشفى.

الفأر أمسك بالورقة وأعطوها لونسة لتفتحها، وقرأ الرجل "لو شجر الصبر يطرح ودع، يبقى في الدنيا صاحب جدع".
جرّتها المرأتان وهما تتضحكان، بينما تبكي ونسة لأنها لم تجد "شوكلاتة" في البخت ولأن الرجل رفض أن يبيعها واحداً من الفئران البيضاء.

شخطت أمها وهن يركبن الأتوبيس: "ياللا يا قليلة العقل".

"الفأرة امرأة فاسقة وإن كانت جماعة وألوانها مختلفة سود وبيض فهي الليالي والأيام والفأر الأبيض والأسود يدلان على الليل والنهار ومن رآه في نومه بالنهار وهو يغدو ويروح فإنه يدل على طول حياته، وإن رأى فأراً يجيء ويذهب أبيض أو أسود فإنه يطول عمره، فالبيض أيام والسود ليالٍ"

ابتسمت وهي تقفل كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين.

ربما كان لذلك الحلم وتفسيره الفضل فيما فعلته ونسة معي بعد ذلك فقد قامت واطعة الكتاب على المنضدة المجاورة، نفضت سريرها وغيّرت الملاءة، وراحت تزيج أكوام التراب عن التسريحة والبرايز القديمة وتفتح شباك الحجرة لتهوّئها، ثم أفطرت على عجل وغادرت المنزل.

بعد ثلاث ساعات عادت وفي يدها قفص صغير مغطّى بالقماش الذي أزاحته فكشف عن فأرة بيضاء جميلة أصابها حر الطريق بالإعياء، أتت لها ونسه بالماء والجبن الرومي والخبز وراحت هي تأخذ دشا.

في الصالة كانت الفأرة الصغيرة قد نطّت بداخل طبق الماء الغويط وبلّلت نفسها بالماء وبدت مثل ونسة تمامًا بعد حمّام بارد في عز الحر.

في تلك الأثناء كنت في مخبأي خلف البوتجاز أحظى ببعض النوم المتقطّع، وأستعد للقيام وممارسة عاداتي الليلية، التي تبدأ بالتجوّل في المطبخ لالتقاط بقايا الطعام المتساقط من ونسة أثناء إعدادها وجباتها القليلة.

راحت ونسة تتسلّى بالفرجة على زيادي وهي تتناول الطعام، آه نسيت أن أقول لكم أنها أسمت الفأرة زيادي أما أنا فقد فوجئت بها تناديني قائلة: "تعال يا توتو".

ولأول مرة ألمح الابتسامة على وجهها، وتبيّن لي أسنانها البيضاء الأمامية العريضة، وهي تقف أمام البوتجاز، تنادي كأنها تعرف

مكاني، كنت أبص، وأعود لأختبيء، وأتسمع، حتى شممت رائحة فأر
آخر.

كانت الفأرة البيضاء غريبة المنظر بالنسبة لي ناعمة هادئة
مطمئنة على كف ونسة الممدود وهي تناديني "تعالى لسه خايف؟"
وخرجت من المطبخ بحركة استعراضية مرحة.
فكرت قليلاً وقلت : أجرب.

خرجت إلى الصالة، حيث تجلس زيادي في حجر ونسة التي
رأني أقترّب بحذر، فرمّت لي بقطعة من الجبن الرومي، شممتها جيداً
قبل أن أبدأ في قرقضتها بلهفة وسط ضحكات ونسة.

بعد ذلك وفي مساءاتنا الثلاثية، كانت ونسة تحكي لنا كل ما
فاتنا من قصتها معنا وغالبًا ما كانت تروح عليها نومة، وهي تحكي
وتتركنا وحدنا، وكان من نتائج ذلك أن حملت زيادي، وفي بطن
واحدة أتت لنا بأربعة فئران اثنان بيض؛ أطلقت عليهم ونسة،
سنووايت، وحليب، وأسودان أسمتهما، الليالي والبيبي دول.

ذات مرة، وكانت زيادي حامل في البطن الثانية، زارتنا فأرة غريبة
تسللت ليلاً من فتحة سلك شبّاك المطبخ، بعد أن شمّت رائحتنا في
المكان. لُقّت المطبخ ولم تجد لنا أثرًا، فاقتحمت علينا حجرة النوم
حيث كانت ونسة تلمُننا حولها، بينما كنت أطعم زيادي المثقلة
بحملها، وبمجرد أن رأت المنظر كَبِدت لنا في الحجرة، واستحسنت
ونسة شجاعتهما، فضمتها إلينا.

بعد أن نامت ونسة وبقية الفئران، قرّرت التعرف على الفأرة الجديدة. وانتهى الأمر بمضاجعتها، فزيادي رغم بياضها ونظافتها، وعلى رأسي وعيني، فهي أول بجتي، لكن ما شعرت به من الفتنة واللذة مع "كوكي" كما ستسميها ونسة لاحقاً كان فوق قدرتي على المقاومة.

بعد ذلك أصبحت أشعر بفضل ونسة أنني كبير عائلة، فقد أنجبت لنا كوكي خمسة في بطن واحدة، رعتهم ونسة ولم تبخل علينا بالطعام، ولا الشراب، ولا المؤانسة والحديث، حتى كان الواحد منا في زمن النوم بجوارها على السرير ذو الملاءة الحريرية، يكاد يصل وزنه إلى كيلو جرام وأكثر، ناهيك عن التوالد والتناسل بيننا والذي كان يتزايد يوماً بعد يوم حتى قالت ونسة مشدوهة ذات صباح وهي تغمز ضاحكة: "بقيتم خمسة وأربعين فار!!"

كنا نسعد بضحكتها فنتجمّع حولها وننام على يديها وتحت إبطها وأقدامها.

أما هي فقد كانت تقول لنا في فضفضاتها الكثيرة: "نفسي راجل ييوسني من 'بُقي' ولو مرة واحدة بس، سني بقي اتنين وتلاتين سنة، والوحيد اللي لمسني....." تبسم في نشوة وهي تتذكر ذلك الشاب الذي وقف وراءها في أتوبيس السيدة عائشة المزرحم وكيف أنها قررت النزول لتركب ميكروباص أو تاكسي لولا أنه أثار جسدها، جعلتها سخونة الجو ترخي نفسها تماماً، وتسكت له وهو يمد يده إلى صدرها. لكن أحد الركاب لاحظ حركات الولد، فشتمه لينسحب

بجسده وينزل مسرعًا في أول محطة، وتشيعه هي من شبّاك الأتوبيس بنظراتها.

لقد أطلقت على أحد أفراد قبيلتنا اسم "الولد الصايح"؛ لأن حكاّته في أجساد الإناث كانت تذكّرها بذلك الشاب الذي استلطفته لأنه غازها بعيونه ونظر طويلًا إلى وجهها قبل أن يجرؤ على فعل ما فعل.

في تلك الليلة ظلّت تفضفض لنا حتى جاءها النوم، فغاصت في مخدّتها لتغطّ فيه بعمق وبراءة، ثم تصحو منتبهة على صوت بائع الأنايب بضجيجه، يخبط مفتاح التغيير بأجساد الأنايب النائمة فوق السيارة ليوقظ الموتى بذلك الصخب الذي يضرس ويشتت الدماغ، تذكّرت ونسة رغم انزعاجها أنها تريد تغيير الأنبوبة فنادت البائع ليصعد إليها، وفيما كانت عيناه تحترقان فتحة صدرها دارتها بسرعة بالطرحة ومدّت يدها له بالفلوس، فسحبها لامسًا يدها، فزغرت له وعيناها تطقان شرار جعله يهرع نازلًا السلام، فتنزلق قدمه ويقع متدحرجًا على درجات السلم، لترتاح ونسة وهي تسمعه يصرخ متأوّمًا، تضحك وتقول بدلال: "اللي يجي عليا لسه ما اتولدش".

الفصل الثاني

في أمسيات مقمرة كانت ونسة تتركنا و تتسلل إلى حجرة نوم والديها وهي تتلقت حولها، و كأن أحدهما قد يفاجئها متلبسة بدخول الحجرة، تسمع من بعيد صوت أمها تؤنّبها بعد أن كسرت زجاجة عطر، أو استخدمت الملقاط فأزالت نصف شعر جاجبها الأيمن.

تنظر إلى السجادة وقد غاصت أقدامهما فيها، وتركت آثاراً لآلاف الخطوات ما بين الباب والسرير وما بين السرير والتسريحة أو الدولاب.

حين تفتح الدولاب لتلقي نظرة بداخله يهتز مفرش ذهبي صغير مطرّز على الكومود كانت أمها قد اشترته في أحد الأعياد وتمنت لو كان في حجرتها مثله، تتحسّس المفرش ثم تشم رائحة يدها؛ هل هذه رائحة أمها أم أبيها؟ أم أن مرور الزمن وطول المعاشرة جعل لهما نفس الرائحة؟

ملابسهما مازالت كما هي في الدولاب، ترفض حتى إعطاءها لفقير يحتاجها.

تقول لم يبقَ من رائحتهما غيرها.

تقف أمام مرآة التسريحة الكبيرة، وقفوا هنا آلاف المرّات حتى أن المرأة قد تكون اختزنّت صوراً لهما في حالات شتى.

تخجل من نفسها حين تباغتها صورتها وقد اشتبك جسدها أمام المرأة المثبتة في مواجهة سريرها بزواية محسوبة تماماً.
الآن تستطيع أن تخزّن صوراً خاصة بها لتستحضرها وحدها كل مساء، ولا يطلع عليها غيرها.

الفكرة تتسحب إلى رأسها في البداية بنعومة، وكلما قاومتها كلما ازدادت قوة وشراسة وتشبثاً بالحياة وبالقفز من رأسها إلى حيّز الوجود.

تخلع ملابسها قطعة قطعة، تستعرض تفاصيل جسدها أمام المرأة الكبيرة المذهّبة ذات المهابة الغابرة.

تتلمس نهديهما متأملة جمالهما، تتعجب للون الحلمتين، لماذا البني بالذات ؟

تتخيلهما بلون وردي يروق لها كثيراً.

تراقب فخذيهما وما بهما من شعيرات دقيقة لم يحن بعد اقتطافها بالحلاوة

وعلام التعجل ؟

تستدير قليلاً وتلتوي لتمكّن من رؤية رديها ثم تهمس لنفسها: "جامدة يا ونسة والله اللي بيعاكسوا معذورين برضو"

تنهش الفكرة في دماغها لكي تستكمل خطة تنفيذها، فتمد يديها إلى الرف الخاص بملابس نوم أمها، تستخرج قميصاً من الساتان باللون الأحمر القاني.

كانت أمها قد هجرت هذه القمصان من قبل وفاتها بما يزيد على عشرة سنين.. رائحة العرق القديمة مع العطر تصنع مزيجًا من كمكمة التخزين.

ترتدي ونسة القميص الذي طالما داعب خيالها، وتمنّت أن ترتديه وهي طفلة.

من جهازها المحمول تنطلق أغانيها المفضّلة، تبدأ في الرقص على صوت عدوية ثم شيرين وأليسا كل حسب كلماته ولحنه ثم تنهي بأنت عمري لأم كلثوم.

الرغبة تقلق الروح، وليس الجسد فقط حتى لو كانت رغبة مجردة غير مرتبطة بشخص بذاته.

يبدأ الجسد دائمًا بالطلب الحثيث، ثم تسانده الروح الفلقة المتوحّدة بخجل ودون أن تتورّط في تشجيعه يكفي أن تصمت إزاء مطالبه.

صلاة العشاء؟ مش هتفوتنا حمّام سخن بعدها ونصلي.

- مش كده حرام؟

- وإيه الحرام في كده؟

لا تترك ونسة لروحها فرصة التراجع فهي تعلم أن تلك اللذة التي سيحظى بها جسدها قد تسكنها قليلاً.

تخلع القميص وتحذق طويلاً في تضاريسها الشابة ونهديها البارزين و النهر المحفور بينهما، تضغط على حلمتها برفق، فيجن جنونها ثم تجري لتختبئ تحت البطانية، رغم دفء الجو.

حين تنتهي من العادة السرية تكون قواها قد خارت، يلتف ذراعها حول روحها المنهكة الصامتة ونهديها المتعرقين، فيما ترفع فخذيها لتلامس بطنها ركبتيها، وتستسلم للنوم حتى الصباح.

ذات مرة زارتنا نعمة صديقة ونسة التي لم تتوقف عن البكاء والنهنية والزن طوال جلستها معها.

كانت نعمة تتوسل لونسة أن تساعدنا، وتستر عليها.

ردت ونسة بخشونتها المعهودة عليها سائلة إياها: كان فين عقلك يا بايظة؟

يبدو من سياق الحديث أن نعمة صديقة مقرّبة لونسة، فهي تكاد تلطم لفرط صدمتها وفقدان البنت لشرفها، ثم ما تلبث أن تحنو عليها محاولة إيجاد مخرج لها من تلك المصيبة.

حاولت ونسة أن تعرف من السبب في ضياع شرف نعمة وحملها سفاحاً لكنها فشلت فقالت لها والدموع تغلبها طيب هتعملي إيه في المصيبة دي؟

ردّت نعمة: تعالي نروح لدكتور نسا وولادة واحدة صاحبي قالت لي على عنوانه، ساعديني يا ونسة. أنا ممكن أقتل فيها.

ونسة طبطبت على البنت واحتضنتها، لا أقول إنها وضعت نفسها مكانها فونسة وإن كانت طيبة وساذجة بعض الشيء لكن "كله إلا الشرف".

إنما ونستنا كانت ضعيفة يا ناس أمام أيّة صديقة، لذا كانت تختارهن بعناية فائقة لأنها تعلم جيداً أنها وقت الشدة لن تتخلى عن فتاة أو امرأة تقاسمت معها العيش والملح، ولو كلفها ذلك مشقة كلام الناس الذي يسم البدن أو تلقِيهن في الجيئة والرواح.

ورغم صديقاتها القليلات كانت أمها تنصحها دائماً قائلة: ياعبيطة بصي لي أنا لا مصاحبة ولا متصاحبة، وأما يفيض بي الكيل من إخواني أشكي لأبوكي وأما "يتملّعن" أبوكي أشكي لإخواني.

كان يحق ذلك لأمها، أما هي فبمن تستعيز عن الصديقات؟ لا زوج ولا حبيب ولا أخ حنون ينصفها، ولا أخت تستمع لها، فلتكن وسطاً لا تكثر من الصديقات ولا تقطع صلاتها بمن تماماً، ولتكن نعمة وهدى بنت أم شريف وإيمان زميلتها القديمة في المدرسة الثانوي هن صديقاتها وموضع أسرارها، لكن إيمان تزوّجت وسافرت السعودية، وهدى أيضاً تزوّجت وألبسها زوجها النقاب، ومنعها من زيارة الصديقات، والأقارب، ولم يبق سوى نعمة حبة أخيرة من عنقود الصديقات القصير.

ألحّت ونسة في معرفة تفاصيل اغتصاب نعمة، وتسمّعت أنا الحكاية من تحت كنبه الأنتريه.

حكّت نعمة ورأسها في الأرض قائلة إنها نامت حزينة في تلك الليلة، تفكّر في ابنة عمها التي تزوجت من شاب وسيم رغم أنها تصغرها بخمسة أعوام، شعرت أن قطار الزواج فاتها، نامت بكمدها وغلّها وإذا بها تفاجأ بشخص ضخّم الجثّة ذي شارب عريض يزورها في الحلم، ويغازلها برقة ونعومة حاولت الهرب منه لأنه لا يشبه البشر لكنه كان يحيط بها من كل جانب ويجدها بسهولة كلما حاولت أن تهرب، وفي النهاية تكوّرت في مكانها فيما اقترب منها لينزع عنها ملابسها قطعة قطعة، لم تشعر بأيّة لذة وهو يرقدها تحته ويدخل فيها شيئاً يشبه آلة حفر أو سننور كبير، وعندما استيقظت من نومها كانت ملابسها الداخلية مبلولة بسائل أبيض لزج، بعدها انقطعت الدورة الشهرية وأجرت تحليلاً عرفت منه بمصبتها السوداء.

ثم انطلقت تتوسّل وتبكي: ساعديني يا ونسة أنا بريئة والله أنا مغتصبة، ومحدث هيصّدق حكايّتي.

تسألها ونسة:

والجّيّ دا مظهرش ثاني طفش يعني؟

تشرّد الفتاة قليلاً قبل أن تجيب مؤكدة لونسة أنها حلمت به بعدها وقد احترق في فرن كبير، واختفى أثره بعد أن تحوّل إلى رماد أسود انتشر في الجو ولم تعد تراه في الأحلام بعدها.

راحت الفتاتان لطبيب أمراض نساء تخصص في هذا النوع من العمليات.

جلستا قبالتة ونظراته تتفحصهما، العملية تتكلف ٢٥٠٠ جنيه تُخرج نعمة ١٥٠٠ وتكمل ونسة الباقي.

بعد أن يتم تخدير نعمة تتوسل ونسة للطبيب: خلّي بالك منها يا دكتور البنت ممسوسة وحامل من جيّ مش بني آدم، أوعى تفتكر إنها لامؤاخذة بنت كده ولاّ كده.

يتسم الطبيب ساخرًا: جيّ؟ ما جيّ إلاّ بني آدم.

تبتلع ونسة تلميحه وتروح تنتظر صديقتها بالخارج، تمرّ عليها الدقائق كشهور طويلة، تبكي، تبتهل إلى الله أن يمرّ الموضوع على خير، وأن يستر الله على صاحبته وعليها من الفضيحة.

تهمهم بقلق وخوف: سواء جيّ أو بني آدم استر يا ستار، اشملنا برحمتك يا عليم بحالنا، احمينا يارب من ذنوبنا، خلّيك ستر وغطاء على ضعفنا وخيبتنا وخطايانا.

تعلم هي أن نعمة بنت جدعة وطيبة وعلى نيّاتها، تعلم أن روايتها قد تكون كاذبة، لكنها قد تكون صادقة أيضًا، ألم يذكر الله الجن في القرآن؟

ألم يحذرنا منهم ومن أفعالهم؟ وإلاّ لماذا ينصحنا الشيوخ بالاستعاذة من الخبث والخبائث لدى دخول الحَمَام؟ ولماذا تنهى المرأة عن التعري والوقوف أمام المرأة معجبة بجسدها أو فاحصة إيّاه؟ أليس لأن الجن يتربّص بها؟ وقد يقع في هواها ويجرى ما جرى لنعمة؟

في كل الأحوال عليها أن تتحمل الموقف حتى نهايته.

خرجت نعمة من التخدير وقد تخلصت من الجنين، واستدعى الطبيب ونسة قائلاً: خلاص وهو يشير إلى سلة القمامة، حيث يقبع هناك بجوار القطن والشاش وأمبولات الحقن المستعملة ما أخرجه من بطن نعمة، الدماء في السلّة ورائحة التخدير المنبعثة من فم نعمة أثارا قرف ونسة، فجزّت إلى الحَمَام لتفَرِّغ ما بمعدتها.

تماسكت لتصطحب نعمة في تاكسي إلى البيت.

ضائعتين، حزينتين دخلتا شقة ونسة لتستريح نعمة قليلاً، وبعد أن أفافت أعطتها ونسة الفوط الصحية التي وضعتها منقّدة نصيحة الطبيب : قولي لأمك أن الدورة نزلت أخيراً، الدم هاينزل لمدة ثلاثة أو أربعة أيام.

خرجت نعمة وهي تقبّل ونسة وتشكرها فيما تشعر ونسة بمرارة في حلقها وهي تربّت على كتفها : بس خدي بالك من نفسك بقي . عادت ونسة بعد هذه الحادثة إلينا أكثر حباً ورغبة في تعويضنا عن أيام غيابها وانشغالها بمشكلة نعمة.

أكثر من مرة كانت تحدث كبسة؛ حين يأتي لزيارتها بعض الأقارب فتخبئنا تحت السرير، أو في بلكونة حجرة النوم، حيث كنا نتسمّع ما يقال بالخارج.

في إحدى المرّات اقترحت زوجة أخيها الأكبر أن تُباع الشقة لكي يحل كل منهم مشاكله المادية.

ردّت ونسة بخشونة: وأنا أروح فين؟

هي دي هي وصية أبويا وأمي؟

حتى عضم التربة نسيته؟

كانت أمها قد أوصت ببقاء الشقة، حتى لو تزوّجت ونسة،
لكي يجتمعوا بها في الأعياد كما اعتادوا أثناء حياتها.
تساءلت ونسة عن تلك المشاكل المادية التي تصيب فجأة أسر
طبيب ومهندس وتاجر.

ليلتها عادت ونسة لتخبرنا في حزن ألا أحد يفكر في ونسة، لا
أحد يسأل ماذا يوجعك يا بنت
ااه بنت ٣٢ سنة ولسه بنت!

نساء شارعهم في الحي الشعبي قراشانات؛ طالما ثرثرن حولها
وكانت الحكاوي تصلنا، كن يقلن أنها "عانس فاتها قطار الزواج"
والحق أن البنت كانت لها طباع صارمة بعض الشيء مع الناس من
حولها، كانت لا تجيد الضحك في الوش والمجلسة والنميمة، كانت
بوجه واحد تقول رأيها دون موارد وكما حكّت لنا وهي فخورّة
بنفسها: "أقول للأعور في عينه يا أعور"

ربما اكتسبت هذه الصفة من جدتها لوالدها التي كانت تسير في
الدنيا كالقطار، لا تعرف طريقاً للمجاملات الاجتماعية، أو الكلام
المزوّق، فلاحة مائة بالمائة تشققت بشرتها في شمس الغيطان، فكستها
سمرة محبّبة، وهبتها الحياة مظهرًا أنثويًا مع صوت رجولي خشن، حتى
أنهم أطلقوا عليها "وفدية الذكر" لكن جدها زوج الست "وفدية" كان
مؤالاً آخر، وحكاية مختلفة تمامًا. ونسة كانت تحب جدها "الحاج
علي" كثيرًا، تسترجع معنا ذكرياتها معه قبل أن يتوفى عن عمر يناهز

التسعين فيما كانت هي في الثالثة عشر، الجد كان متصوفاً كبيراً
هكذا تؤمن ونسة ككل العائلة، ألا يكفي أنك حين توقظه فجأة
ينتنفض ويصرخ: "حيّ"؟!

أليس معنى ذلك انشغاله الدائم بذكر الله نائماً وصاحياً؟
كان الجد أيضاً يقرأ لابن عربي وجلال الدين الرومي ويطرب
لإنشاد الشيخ ياسين التهامي حين يقول:

أكاد من فرط الجمال أذوبُ

هل يا حبيب فى رضاك نصيبُ

كان جدها يحضر حلقات الذكر في القرية، ويصاحب دروايش
السيدة زينب والحسين.

ذات مرة غاب جميع من بالبيت إلا الجد وونسة التي جاءته باكية
معتذرة لأنها أكلت نصف كمية الجبن القريش خالي الملح المخصّص
للجد صاحب الضغط العالي، ضحك الجد كثيراً ومازحها بأن من
يأكل جبن المرضى يدخل النار وفي فمه طبق جبن لا يخرج منها حتى
يطعم إبليس وزبانية النار منه.

تبكي ونسة لأن عمّلتها ستعرضها لخدمة إبليس، ويضحك الجد
 ويفهمها أنه يمزح، يأخذها في حضنه يباركها ويقرأ آية الكرسي على
رأسها، يقول لها أنت فتاة مباركة، ضميرك صاحي والخير يجري في
دمك.

هالة من النور والرضا كان يراها الجد وحده فوق رأس ونسة أينما راحت، أما الأم وبقية العائلة فلم يكونوا يلقون لكلام الجد بالأ، تسمّيها الأم هلوسات، ويسمّيها الأب دروشة.

يروح الجد في تسبيحاته وتوهمات من بعد عودته من صلاة الفجر متعكراً على ونسة التي تجلس تتساءل أمها ساخرة: هالة مين؟ وضمير إيه؟

البت كانت خائفة أن حد يكتشف أكلها جبنة جدها المريض فونجها فاعترفت بنفسها آدي كل الحكاية

وتراقبه وهو يرّد أسماء الله الحسنى، ويسبّح، ويحوقل ثم يحكي لها عن كلمات مولانا جلال الدين الرومي: المؤمن الذي غداؤه التقوى المتقدمة يستلهم بدموعه معرفة لم تدرسها المدارس قط.

ربما فهمت نصف الكلام وربما حفظته لجرسه الجميل ولطريقة الإلقاء المنعمّة التي كان يقوله بها الجد، لكنها مازالت تحفظه وتردده حتى اليوم.

معنا كانت ونسة تحكي وتحكي وهي تطعمنا وتحمّمنا، نسمع الأغاني ونرقص سوياً أمامها، نشر أوراق الورد على وجهها، نعد لها الشيشب لكي ترتديه في الصباح ونحمل لها الروب الحريري ونساعدتها في تنظيف المنزل والطبخ.

وفي المساء تفتح قنوات الأفلام الأجنبية؛ فتزورنا "جوليا روبرتس"، و"أنجلينا جولي"، ونرى ونسة تتحدث مع "توم هانكس"، وتبكي على صدر "ريتشارد جير"، وتراقص "ال باتشينو".

لم تعدم ونسة لحظات من الفرح زارتها ونحن معها كان ما يفرحها
غير ما يفرح بقية البنات لا الذهب ولا الملابس ولا الفلوس.

مرة رأَت عصفورًا وحيدًا يقف على سور بلكونتها، يلتقط حبوبًا
وقعت سهوًا منها وهي تنقي الأرز. تعمّدت بعد ذلك أن تترك طبقًا
مليئًا بالحبوب المتنوّعة، واعتاد العصفور أن يرتاد بلكونتنا يوميًا ليلتقط
الحبوب، ويومًا بعد يوم زاد وزن العصفور، وصار غير كل العصافير.

رأى العصفور ونسة مرة تبكي وحدتها واحتياجها لحضن دافئ،
فبكى حتى أغرقت دموعه أرضية البلكونة، وسرحت على الصالة
الكبيرة حيث تجلس ونسة التي لامست قدمها بركة المياة الساخنة،
انتفضت مندهشة وتوقفت عن البكاء كان الوقت صيفًا وهذه ليست
أمطار.

خرجت إلى بلكونتها لتجد العصفور يذرف الدمع لأجلها،
اقتربت منه وقبّلته في فمه، وسط ذهلنا انقلب العصفور إلى شاب
وسيم طويل ذي عينين عسليتين واسعتين، كان يشبه الممثل
عمر الشريف فتى أحلام ونسة الذي حفظت أفلامه عن ظهر قلب.

فؤاد ونسة الذي انخلع لم يكن على قدر المفاجأة، أغشي عليها،
فجرينا إليها لننقلها إلى سريرها، وبينما قام بعضنا بإسعافها وإفاقتها،
كان آخرون يبحثون في البلكونة عن العصفور وبركة المياة لكنهم لم
يجدوا شيئًا سوى قلوب ورقية صفراء ووردية ملقاة على كرسي البلكونة
البلاستيكي، وبعض الحبوب التي كانت تقدمها للعصفور.

في أمسيات أخرى كنا نستمع إلى أم كلثوم تشدو بأغانيها على
قناة روتانا كلاسيك أو الإذاعة، تسرح طويلاً في معاني قصائدها
وأغانيها، تتذكر جدها المتصوف حين كان يؤكد لها أن أم كلثوم لا
تغنيّ لمحبوب رجل فانٍ، يأكل الطعام ويدخل الحمام مثلنا، إنها تشدو
وتهميم في حب الله ورسوله.

أليست القائلة: دعاني لبيته لحد باب بيته؟ سيدة محترمة في مقامها
أتزور رجالاً في بيته؟ طبعاً تقصد زيارة بيت الله الحرام، وهكذا في بقية
أغانيها وقصائدها إنما تناجي الله وتتغنى بعشقه، ويحسبها العامة
والجهال تغنيّ لمشاعر فانية كأجسادهم البشرية.

ذات مغربية عاد الولد الوسيم الذي كان عصفوراً مرة أخرى وهي
تسمع أم كلثوم في أغنية أغداً ألك، اقتربت منه ونسة وقبلته في فمه،
عاد لطبعته عصفوراً، ربّنت ونسة على ظهره وأطلقته يطير في الهواء
مخلّفاً وراءه رائحة زكية وبعض القلوب الورقية الوردية.

تبتسم ولا يحزنها فراقه، وتروح تطبخ لنا ألد الأظعمة، فقد
انفتحت شهيتها بعد عشرتها معنا، وصارت تعد لنفسها أطباق
الخضار واللحوم والأرز، ونأكل نحن الجبن الرومي واللانشون، وأحياناً
الفراخ والسّمك الذي نعشقه.

أخوة ونسة الرجال مختلفون عنها تماماً، ونسة كانت حبة كرز
سمراء ملتبهة بالمشاعر حانية القلب، فيما كان إخوتها يشبهون الخيار
أو القرع "يمدون لبراً" كما كان الجد يردّد دائماً
كنت أسمعها تشكو لصديقتها نعمة جفاء أخوتها، وقسوتهم، وانكفاء

كل منهم على بيته وزوجته تمامًا كما كانت تقول أمها متندرة بالمثل
الريفي: اللي أحطها تحت فخدي أحسن من أمي وأختي.

الواحد منهم لا يستمع لشورى أو رأي إلا من زوجته الخبيثة
ذات الرغبة الدائمة في السيطرة على ونسة وعلى الشقة ومحتوياتها.

تستكثر عليها زوجات الأخوة ما تركه لها الأب والأم من أثاث
وأجهزة كهربائية ومعاش شهري، رغم أنهن يعشن عيشة مستريحة ولا
ينقصهن شيء، إلا أن فلوس ونسة، والبيت الكبير المطل على ميدان
السيدة زينب العريق يخلو دائمًا في عيونهن.

الشقة تساوي الكثير فلماذا لا تنتقل ونسة للإقامة مع أسرة
أحدهما؟ وتؤجّر الشقة ليحصل كل أخ على نصيب من الإيجار أو
يتم استغلالها في أي مشروع تجاري؟

تلك الأفكار كانت تدور دائمًا في رأس ونسة، ربما كانوا فعلاً
يفكرون هكذا، وربما لم يكن أحد يأبه بكل ذلك، ربما كانت مجرد
مخاوف وأوهام، من يعرف؟

معارف ونسة قليلون لكنهم مميزون من أهمهم الكونتيسة أم عزة؛
صاحبة محل لمستلزمات بدل الرقص ودلالة وبائعة ملابس.

والكونتيسة ليس اسمها في دفاتر الحكومة وكمبيوتراتها، ولا حتى
لديها ابنة اسمها عزة فاسمها الحقيقي أمورة.

و"أمورة" حكايتها طويلة؛ على أنغام أم كلثوم وهي تغني، والبحار
يتصاعد من أكواب الشاي باللبن الساخن كانت دردشتها الصاخبة
المرحة مع ونسة كل يوم خميس.

كانت كل بيوت الحي تتعامل معها بتحفظ من بعيد لبعيد، تجلب لهم قمصان النوم والملاءات لجهاز العروس، ولا يخلو الأمر من بدلة رقص أحياناً تطلبها الفتاة المندشدة سرّاً من خلف ظهر أمها وتتيحها لها أم عزّة بسعر متهاود، وقد تكتشف أم الفتاة وجود البدلة في جهاز ابنتها فتلقي بها في وجه الدلالة إذ أن البيت محترم، والبنات لا يجب أن تخرج منه ببدلة رقص، ألا يكفي قمصان النوم والملابس العارية للبيت ؟

فليشتري العريس بدلة رقص إذا كان له مزاج، وإذا لم يكن فلتوفّر الأسرة ثمنها المرتفع، وما قد تجلبه من مصمصة شفاه أم العريس التي ولا يد سوف تتفقد جهاز العروس وملابسها قطعة قطعة ليلاً بعد أن تفرش العروس وأهلها وأصحابها الشقة.

في تلك الليلة وكما هو متعارف عليه في الأحياء الشعبية تروح أم العريس وبعض قريباته وبعض سيدات الحي من الجيران إلى شقة الزوجية،

يبدأن أولاً بفحص طريقة فرش الجهاز، ورائحة المكان، ثم يتجهن إلى المطبخ للفرجة على أجهزته من ثلاجة وخلاط ومفرفة، ويفحصن الملاعق والأطباق، والحلل، وأطقم الصيني والجيلي، والأكواب والكاسات، ثم يأتي دور الدولاب فيفتحنه ليشاهدن ملابس العروس وقمصان نومها قطعة قطعة، ويأويل العروس وأهلها من ألسنتهن الحادة لو لم تزُق الرفائع للحماة.

تستمع ونسة إلى حكايات الكونتيسة مبهورة، فلولاها ما عرفت الكثير من دقائق أسرار البيوت، بل ونفوس أصحابها تلك الدروب المتعرجة المستعصية على الفهم والمثيرة للشفقة أحياناً، ولإحباط أحياناً أخرى وللسخرية نالته.

أم جوياء كانت حكايتها دائماً هي الأكثر إثارة وهي تلك الجارة التي تسكن العمارة المجاورة مباشرة لعمارة ونسة.

تزوجت أم جوياء أو "كريستين" من عماد صاحب محل الذهب بالصاغة وعاشا حياة هادئة أنجبا خلالها "جوياء وأليس" إلى أن تعرّف عماد على فتاة لعوب بدأت تنصب شباكها حوله، لم تكن ترغب في الزواج منه لاختلاف الأديان كانت فقط تريد أمواله، ولأن عماد كان قليل الخبرة تصرّف كزوج في منتصف الثلاثينات انشغلت زوجته الشابة بعملها في مكتبة الكنيسة صباحاً وبابنتيها بقية النهار، وبالنوم ليلاً مرهقة ومتعبة.

تصوم أم جوياء وتصلّي كثيراً وتتصدق، وتقول إن الجسد فان، تكره أن تستجيب ليلاً لما يلد للنساء، لا تحب العطر، والقمصان الوردية والسلاسل وخلافه كما تحكي الكونتيسة وهي تشفط رشفات الشاي أبو لبن الساخن، ثم تتكرّع وهي تحكي لونسة الغارقة في الدهشة لأذنيها.

البنات اللعوب ظلت تخايل الجدع في محل عمله، تدوّخه بعطرها تارة وأخرى بتشيّ أجزاءها السفلى المحشورة في جيب أسود قصير ضيق

يكشف عن ساقين بلوريتين، تتمايص في الكلام وتصوّب نظراتها اللعوب إلى عينيه.

العجيب أن أم جوياء لم تكن وحشة أو منفرةً أبدًا، على العكس كانت بيضاء ناعمة البشرة، متواضعة، حلوة الروح، لكنها كانت مشغولة لشوشتها في العمل والبيت، والرجل من هؤلاء يريد من تناغسه، وتهتم برجولته وتدللّه خاصة في السنة السابعة من الزواج كما أكدت خبيرة العلاقات الزوجية الخاصة أم عزة التي تضحك وتداري سنتها الذهبية وهي تقول لونسة أنها لا تريد أن تفتح عينها على هذا الكلام، ثم تواصل، مع الأيام دبّت مشكلة كبيرة بين عماد وزوجته بسبب البنت اللعوب، فقد ظلت كريستين تتجاهل كلام الناس الذي وصلها عن خروج عماد مع الفتاة واصطحابه لها في سيارته وأحياناً في شقق أصدقائه المهاجرين إلى كندا والتي أستأمنوه على مفاتيحها، أو شقته الخاصة في الشيخ زايد، لم تعد تصير على كل ذلك وبعد أن كانت تداوي قلبها بالصلاة والصيام انفتحت عينها رغماً عنها على الجحيم حين رأت دليل الخيانة، فقد بلغ به الاستهتار أن يشيل ملابس نسائية داخلية تخص غيرها في جيوبه.

انفجرت في وجهه وهو عائد يتطوّح في الثانية صباحاً، والحق أن صوتها لم يعلّ لسمع الجيران، لكنها أنذرت بالفضيحة لو لم يعد إليها وإلى بيته مستقيماً تائباً

بعد أن أفاق من سكره بكى عماد كثيراً بين يديها، استعطفها ألا تفضحه وألاً تتركه، قال إنه لا يستطيع أن يقطع علاقته بالبنت،

ولا يستطيع أن يترك زوجته وأم أولاده، اعتذر ومزّغ أنفه تحت قدميها ذات الكعبين المتشققين.

قالت له إنها مصدومة في حبيب عاشت له وأب زوج كانت تراه مثلاً للرجل المحترم العاقل.

قال لها إنها السبب وأن ما تحرمه منه وجده لدى أخرى.

كبرياؤها كان يقع قطعة قطعة متناثرًا على أرضية الحجر، ثم قامت لتنام في حجرة البنتين وتركته وهو استلم السرير ليفرد جثته عليه. بعدها خرجت إلى الحمام أكثر من مرة لتتبول حتى أنها شكّت أن يكون أصابها السكر على أثر الزعل، كما حكّت لي المقدّسة تريز والدتها، مرّت على حجرة النوم ونظرت إليه فوجدته وقد راح في نوم عميق، بدا وجهه كطفل مطمئن عرفت أمه بعملته فلم يعد يخشى افتضاح أمره. ينام عماد قرير العين، لا يخشى أن تأتيه ضربة أذى أو حتى قرصة أذن من كريستين، فهو يعلم كم تحبه، ويعلم كم هي طيبة ومسالمة، قد تؤذي نفسها ولا تؤذي، وربما كان هذا هو ما دفعه لخيانتها بكل تلك الجرأة والاستهتار والطيش. قال يا فرعون مين فرعنك؟ قال مالقيتش حد يلمني. ويعود بعدها عماد لينغمس في الخيانة مرّات ومرّات، بلا أيّة محاولة لإصلاح حاله أو إصغاء لنصائح الأهل والأصدقاء، أصبح يفعلها عيني عينك لا خوف ولا مدارة.

ليالٍ طويلة من الوحدة والأسى قضتها كريستين قبل أن تقرّر اللجوء إلى الطلاق، سنوات طويلة ضاعت من عمرها بين طرقات

المحاكم ومكاتب المحامين، لكن الأمر شبه مستحيل؛ الكنيسة تصعب الأمر والطلاق أسهل منه الموت، وهي لن تلجأ إلى اتهامه بالزنا.

ماحدث ذات يوم أن الجميع صحا على خبر وفاة كريستين، لا أحد يعلم إذا كانت ماتت مقهورة بعد أن هددها عماد باستعادتها عنوة إلى بيته أم ماتت لأنها كرهت الحياة وزهدتها، فصعدت إلى الله علها تجد العدل في مكان آخر، المهم أنها ماتت يا ولداه وارتاحت، لكن الذي لم يرتح، ولن يرتاح بقية عمره هو الموكوس عماد كما تسميه أم عزة، لا يعلم أحد من أين طلع له الضمير على كبر، فيقولون إن ضميره يعدبه ويؤنّب ليل نهار بذنب كرستين، ويقولون إنه زهد النساء جميعاً، وأنه يزور قبرها يومياً.

تري أم عزة أن كريستين كانت أولى بكل هذه الدموع في حياتها، كانت أحوج لكلمة حنونة، وحضن زوج مخلص ووردة واحدة من تلك الباقات التي يطلع بها القرافة عليها

تسرح ونسة في كلام أم عزة، تفكر في زوج حنون مخلص، تخشى أن تتزوج من رجل وتنجب منه ثم يخونها أو يطلقها تشرد في أهمية حضن رجل دافئ في ليلة شتاء كتلك تقول لنفسها : ربما كان هناك رجال أوفى وأكثر إخلاصاً ومودة من عماد جارهم تطمئننها أم عزة :لا؛ صوابك مش زي بعضها.

- تعري ياونسة؟

- نعم يا أم عزة

- فيه رجالة مايملاش عينهم غير التراب.

وتنسج أم عزة خيوط حكاية جديدة مع كوب شاي جديد
سادة تصبُّه لها ونسة، وتنصت ونسة لحكاياها حتى تتشاءب
وهي تسألها:

- هيه وبعدين ؟

- ولا قبلين، أسيبك بقى دلوقت أنا قرَّبت أنام على روحي.

الفصل الثالث

اليوم الذي شعرت فيه ونسة أن رجلاً يفكر بها كان العجوز محمود صاحب محل خردوات بشارعنا الكبير، محمود لم يكن رجلاً ستينياً عادياً فقد اكتسب محبة الجميع وثقتهم لأنه تاجر أمين واسع الصدر مع زبائنه، لا يببالغ في المكسب، ولا يطلب من الدنيا إلا القليل، توفت زوجته ولم ينجب.

لم يكن محمود ينظر إلى تفاصيل جسدها تلك النظرة الجارحة التي تكرهها، وهي كانت تناديه عم محمود؛ الكلمة التي كانت تلقى قبولاً منه رغم أنها تشعره بفارق السن بينهما.

اقترب منها ذات يوم قائلاً: ست البنات ترضي تتجوزيني؟ وبلاش عم محمود دي قول لي يا حودة.

ضحكت ونسة وهي تظنه يمزح كعادته، لكنه أمسك بيدها فجأة وقبّلها قبلة حانية احمرّت لها وجنتاها، فسحبت يدها بسرعة، وراحت تنظر بجمنة ويسرة إلى الشارع الذي كان خالياً في ساعة العصاري، وجرت من أمامه كالمجذوبة وهي تردّد بينها وبين نفسها عم محمود طب ازاي؟

الرجل لم يكن متبجحاً كأبي هدير، وطلب الحلال منها مباشرة، ولكن كيف وهي بنت بنوت لم تتخطّ الثانية والثلاثين بعد وماذا عن أحلامها بشاب وسيم أو حتى نصف وسيم؟

محمود لم يتأخر في الخطوة الأولى؛ راح وكلّم أخواها الأكبر، لكن طلبه قبول بالرفض القاطع من الدكتور سليم، حتى دون أن يسأل ونسة رأيها، والحق أن البنات لم تكن لتوافق لكنها فقط كانت تريد أن تشعر بما تشعر به البنات حين يسألوهن عن رأيهن في العريس الذي جاء بقدميه خاطبًا.

سليم بخل عليها حتى أن تمرّ بهذه التجربة.

بكت ليلتها طويلاً لم تكن تعلم لماذا تبكي؛ أهى صدمتها في عريس جاء بعد طول انتظار فإذا به عجوز أرمل؟ أم لأن أخواها لم يسألها رأيها في العريس ورفضه من "برّه برّه"؟

قالت لها الكونتيسة: ولا يهملك "لسه كيالك مجاش يا بت"، ونصحتها طويلاً أن تهدّب حواجبها، وتنتف شعر وجهها، لكي تيرق وتصير حلوة الطلّة، لكن ونسة كانت تحب شكلها كما هو، حلقة ربنا، تقول بعلو صوتها أنا حلوة غصب عن عين التخين، لكنها في قرارة نفسها كانت تحاول أن تغطّي بئرًا عميقًا بلا قرار، تشعر أن حظها من الجمال قليل، وقد باءت كل محاولاتهما كأنتى في طور المراهقة بالفشل في تحسين شكلها، بل إنها وجدت سخرية من أحوثها ونهيًا من أبيها، يردد بحسم: إيه لزوم قص الشعر؟ وليه المكياج؟ والوقفه قدام المراية؟ والكعب العالي هابقوس ضهرك والفستان القصير قلة أدب، والبنطلون الجينز استرجال، وإيه ده انت عاملة حواجبك؟

وتروح نهارات وتجئ ليالٍ ومازالت ونسة تعيش معنا في شقتها ترعانا ونرعاهما، تسقي زهور الياسمين في بلكونتها وتجلس في ساعات الصفا على جهاز الكمبيوتر الصغير الذي اشتترته لتبدأ أخيراً في التعرف على هذا العالم الجديد الغامض؛ الإنترنت؛ تبحث على جوجل عن صور مهند لتخزّن على جهازها أكبر عدد من الصور له، وتقارن بينه وبين إبراهيم باشا والسلطان سليمان أبطال مسلسل آخر وتهمس بشقاوة: ما الحب إلا للحبيب الأول.

في يوم زارتها صديقتها إيمان زميلة الدراسة التي أكملت والتحقت بكلية التجارة، دخلت معها على موقع الفيس بوك؛ أضافت لصداقتها كل من يضع صوراً لمهندّ أما صفحتها الشخصية فلم تضع عليها صوراً لها، فقط وردة بنفسجية كبيرة وأسّمت نفسها "غريبة منسية" فأصبحت تقرأ على صفحتها: غريبة منسية حدّثت حالتها، غريبة منسية علّقت على صورة لفلان، غريبة منسية ترغب في إضافتك إلخ إلخ.

العالم الجديد الذي انفتح أمامها قلّل كثيراً من حدّتها وعصبيتها الناتجة عن الوحدة والفراغ، أصبحت تقضي ساعات طويلة تتصفح ما يكتبه الآخرون. صور وأمثال ونكت وحكم وقصص لطيفة، صفحات رومانسية وأخبار الفنانين ونصائح للفتاة المهذبة حتى لا تقع في شرك الخديعة.

أصبحت ونسة تهمل غذاءنا ورعايتنا بعض الشيء، شكّونا لها كثيراً من تغوّل بعض الفئران كبيرة الحجم على صغارنا فيما يشبه

البلطجة عند بني آدم، للحصول على كم أكبر من الطعام، حاولت أن تهدئ الأمور بأن زادت كميات الطعام وقللت من ساعات جلوسها على الكمبيوتر، لكننا كثيرًا ما كنا نحتاجها لتجالسنا وتحكي لنا وتنظّم حياتنا كما اعتدنا، حفلات الزواج والميلاد والرقص والغناء معها.

لم يكن هناك حل سوى أن نتخلّص من منافسنا في قلب ونسة، الخطة كانت بسيطة: ممّس وشادية ونعناع يقرضون سلك التليفون فينقطع النت وتحتاج أيامًا لتجد من يصلحه.

الحق أن البنت غضبت كثيرًا علينا، وهددتنا أن تقطع رقية من يفكر في قرقضة أي سلك في البيت، ونحن وعدناها أنها المرة الأخيرة فابتسمت وصدّقتنا، لكننا كنا ننقض عهدنا معها كلما أردنا لفت نظرها إلينا، وهي كانت تدرك ذلك فنحن أبناءؤها الذين لم تلدهم.

ذات مرة حكّت لنا عن رجل يحاول التعرف عليها على الإنترنت، وأنه طلب منها أن ترسل له صورتها فاحتارت أيّة صورة ترسلها إليه وخشت إن هو رأى صورتها أن يتوقف عن محادثتها.

وأخيرًا اهتدت لحل فأرسلت له صورة ابنة أخيها ذات السبعة عشر عامًا.

استمرت المحادثات الليلية بينهما، وعندما بدأ الرجل يطلب أشياء لم تبح لنا بها ونسة توقفت عن محادثته.

قالت لنا والبكاء يخنق صوتها: حتى ذلك الذي لم يربني ولا يعرفني لا يريد مني إلا جسدي الذي لا يدري تفاصيله، يارب ألا يوجد

رجل ينظر إلى قلبي يلمس بيده أحاسيسي، تربّت على كتفها
وتحضنها زيادي ثم تقول لها في صوت حكيم اصبري يا ونسة لسه ابن
الحلال ماجاش، روحك وقلبك الطيب يستاهلوا أحسن راجل في
الدنيا.

أما أجمل مغامرة قمنا بها مع ونسة فكانت نزهة ليلية في إحدى
الحدائق، فقد وضعتنا في صندوق كبير به فتحات للتهوية وكانت
تحملنا كهدية أوحقيقية بها محتويات هامة حتى جلسنا على النجيلة
بالقرب من شاطئ النيل بالمنيل وقت غروب الشمس، أخرجتنا من
الصندوق لنتشر بالحديقة، نشم رائحة النيل ونغيّر جو كما يقول
الناس. وهي كانت تصطحب كتاباً رومانسياً من روايات عبير
جلست تقرأ فيه لتروح في دنيا أخرى تبكي لحظة وتبتسم أخرى وتحلم
بفتاها.

لم تكن ونسة رغم حنية قلبها عبيطة أو ساذجة، والوقائع تثبت
ذلك وقد شهدتها بعيني.

ذات ليلة جاءتها امرأة خضراء العينين بيضاء البشرة، ترتدي
جلباً وطرحه رأس، معها طفل عمره سبع سنوات، وتحمل آخر على
يديها فتحت لها ونسة الباب، وقالت المرأة أنها تعمل في تنظيف
البيوت وتحتاج إلى عمل ورجت ونسة أن يجعلها تنظف شقتها.

تردّدت ونسة قليلاً، رغم أن المرأة صعبت عليها، لكنها
استأذنتها قليلاً وجاءت تشاورنا هل تسمح لها بتنظيف الشقة من
باب العطف والصدقة.

بعضنا تَحَمَّس للموضوع حتى ترتاح ونسة من مسؤوليات التنظيف اليومي المرهق للشقة، لكن البعض حذرَها من مَعْبَة ذلك فقد تروح المرأة وتفتح فمها هنا وهناك حول ونسة التي تعيش مع الفئران وتلوك الألسنة سيرة ونسة الغلبانة وأخيراً كان الصوت الأعلى للرفض، وتجاوبت ونسة مع رأينا وسحبت من درج التسريحة كيس نقودها لتخرج ثلاثين جنيهاً وتدسَّها في يد المرأة التي انصرفت بابنيها داعية شاكراً لونسة.

لكن دماغ ونسة لم تتوقف عن التفكير، أخذت تؤنّب نفسها قائلة: جاءت المرأة تطلب عملاً فحوّلتها إلى متسولة، يالقسوتي فليتولاها الله وتجد عملاً عند غيري.

زراتها المرأة بعد ذلك في المستشفى عندما علمت بمرضها ودعت لها بالشفاء طويلاً.

المهم قبل أن أنسى، دعوني أروي بقية حكايتنا مع ونسة فقد صار عددنا خمسين فأزاً، بدأت روائحنا تغزو شقق الجيران، فيرسلون صغارهم ليسألوا عن أشياء وهمية، علَّهم يعرفون سر الرائحة والجلبة في شقتنا، وحدها ونسة لم تكن تشكو من المشكلة.

ذات صباح خرج أحد صغارنا المتهورين، ونطّ في شقة مجاورة لونسة، وعلى الفور أعلنت حالة الطوارئ في الشقة وتم اصطياده.

بعدها بدأ الجيران يتهامسون حول ونسة وشقتها واشترك البقال معهم ليخبرهم بكمية اللانثون والجبن الرومي الذي تشتريه ونسة يومياً وصاروا يتسائلون: من يأكل معها كل هذه الكمية؟

ذات ليلة سمعنا جرس الباب، فاخترتُنا كالعادة، كانت أم هدير
ومعها مجموعة من الجيران وصاحب العمارة، سألوا ونسة: إنت مربية
حيوانات في الشقة؟

- حيوانات؟

- كلب، قطة، فئران بيضاء أو سوداء مثلاً؟

في البداية أنكرت، لكنهم واجهوها بما رأه أطفالهم وبما سمعه
بعضهم من كلامها مع الفئران خلف الأبواب.

وأخيراً اعترفت لهم بجرأة، وقالت: أنا حرة في بيتي.

حاولوا إقناعها بالتخلص منا، لكن بلا جدوى.

قد يشعر الإنسان بخطأ موقفه لكن يداهم هجوم الجميع ضده
بشكل مبالغ فيه دون أدنى تعاطف إنساني أو اهتمام حقيقي نابع من
حرصهم عليه، ما يجعله يزداد تشبثاً بخطأه فهو هنا ضحية مسكينة
يسن الجميع سكاكينهم لذبحها، رغم أن الخطأ بسيط ويمكن التغاضي
عنه ومن منهم لا يخطئ؟

كان رأسها الناشف يزداد صلابة كلما نظرت إلى أفواههم تتسع
بالدهشة والسخرية، وجلود وجوههم تتعرق بالعصبية الفارغة لمجرد أنها
ترى كائنات لا يحبونها

تساءل هل تدخلت يوماً فيما يحبه الآخرون؟ هل لأنني أكره
القطط فمن حقي أن أمنعهم تربيتها؟

تتساءل ولا مجيب فالجمع قد اتخذ القرار نيابة عن صاحبة القرار الأولى وكثيراً ما يفعل الناس ذلك إعلاء لما يسمونه "المصلحة العامة".

وكانت النتيجة أن فوجئنا ذات صباح بأيادٍ غليظة تدق على الباب وتكاد تخلعه، ففتحت ونسة، وإذا بمجموعة من الرجال، يقتحمون المكان ويقومون برش مادة كريهة الرائحة، بعد أن وضعوا كامات على أنوفهم، وأخرجوا ونسة مكتوفة الأيدي بعيداً عن الشقة.

وهناك أمام باب البيت كانت صرخاتها تتعالى وسط ضجيج الناس والتفافهم.

وقفت تنادي علينا، فلا يرد أحد.

حملوها إلى منزل أختها ورأيتها وهي تنظر خلفها بعيون تملؤها التساؤلات والألم.

لم أرها بعد ذلك، فقط كنت أتسمّع أخبارها من خلف الشبايبك: عرضوا الشقة للبيع بعد تطهيرها/لا أحد يريد شراء الشقة/ وضعوها في مصحة نفسية/تناولت ميدياً حشرياً/ بصمت لأختها على توكيل بالبيع وهي على فراش المرض.

الخلاصة أنني لم أر يوماً طيباً منذ فارقت بيت ونسة.

"ناولني حبة اللانشون دي، رينا ما يوريك جوع....." بلاش النظرة دي، دا كان أقل أكل بناكله، سمعت عن الكباب والكفتة؟

دُقت السمك المشوي؟ شربت عمرك نسكافية؟

هيسيه كانت أيام!

كنت قد قضيت أصعب ليلة في حياتي لأول مرة في مستشفى نفسي، عندما أفقت من تأثير المهدئات، وبدأت أستعيد وعيي صرخت بأعلى صوتي أستغيث بأصدقائي الفئران، كنت أردد أسماءهم بلا تلثم ولا نسيان: زيادي بيبي دول، الواد الشقي، الماظ، نوسة، نعناع، لمون، الواد الصايح، ممس، معجابني....

المصحّة التي وضعوني بها كانت تليق بسمعة أخوتي لكني شعرت بالغصّة في حلقي، رحت أفكر طويلاً إذا كنت فعلاً قد جننت لأني ربيّت فئراناً بيضاء وسوداء أم أنهم فقط يبالغون فيما وصلت إليه حالتي؟ أم أنهم هم المجانين؟

جاءتني نعمة تزورني في المستشفى، وأخبرتني أن القرشانتين تلحّان على أخوي للإسراع في عرض الشقة للبيع، وأنهما تردّدان أنها ستأتي بما لا يقل عن مليون جنيه هم وأولادهم أولى بها وسيظل حق ونوسة محفوظاً في رقبتهم إلى أن يأتي ابن الحلال ويتم تجهيزها بهذا المبلغ.

أسمع وأضحك ساخرة، أي ابن حلال؟ أي عريس ذلك الذي سيأتي مثلي؟ سأظل حبيسة هنا حتى أموت ويخلصون مني. أكثر من مرة حاولت أن أتخلص من حياتي.

عنابر المستشفى، روائح المطهرات، والبلاط النظيف ووجوه المرضى البائسة الذاهلة كل ذلك يلتف حولي، يكاد يقتلني.

الصدقات القليلة التي شرعت في إقامتها في المستشفى مع مريضات في نفس سني لم تكن تستمر طويلاً، فقد كن يخرجن بعد أن تحف حدة المرض، وأبقى أنا بحجرتي وحدي، يروح الوقت ويجيء،

ولا أعلم كم شهر مرَّ عليّ في معتقلي المشبَّع بالديتول والمطهرات الأخرى التي لا أعرف لها اسمًا.

تتوالى الممرضات على رعايتي للحقن وإعطائي حبوب لا أعلم عنها شيئًا، الأطباء يقولون أني تحسَّنت وأنا أنظر في مرآتي فلا أجد نفسي، أحيانًا أجد الصورة ممحوة وأحيانًا أجد نفسي فتاة أخرى جميلة رقيقة أنيقة مبتسمة دومًا وأحيانًا ثالثة أجد نفسي صغيرة وحيدة منبوذة لا أحد ألعب معه من عيال الشارع.

أسرح طويلًا مستعيدة أيامي مع الفئران، ثم تتابني حالات من الهياج المفاجئ تستدعي أن آخذ حقنة مهدئة لأنام.

تحتاج مشاعري حين أستيقظ ليلاً وحدي في الغرفة فلا أجد مهتد هنا لألجأ إلى حضنه أثناء المسلسل، فمشاهدة التلفزيون تتم بشكل جماعي في صالة مخصَّصة لذلك.

في عتمة حجرتي أطلق العنان لخيالي، استبدل الطبيب شريف الذي يتابع علاجي بمهتد، بالطبع ليس له مذاق مهند الذي أعشقه لكن لا بأس الموجود يسد.

جاءت أم عزة في بداية دخولي المستشفى لزيارتي ومعها الكثير من الفاكهة والحلويات وكم كنت أشتاق لحضنها الدافئ برائحة اللافندر التي تغرق بها ملابسها، جلست بجواري وأنا ممددة في سريري تحدّثني عن أخبار الشارع والجيران، وعندما سألتها عن الفئران حاولت التهرب مني، وراحت تسلك دروبًا أخرى من حكاوي زبائنها ومشاكلها معهن، وتعرج على حكايات الراقصات في الزمن الفائت،

ولكني لم أستطع أن أصغي لكل ذلك، إذ قاطعتها بحسم متسائلة:
هي الفيغان كلها ماتت؟

جاءني الرد صريحًا لكنه ملفوف بالشفقة بكلام من قبيل كلنا
نفقد أعزائنا، فالفلاح في غيظه لا يستطيع الاستغناء عن الجاموسة،
وفقدانها يُعد فقدان لأحد أفراد الأسرة، ولكنه يتحمل حزن الفقد
والخسارة، والهائم التي تربي كلبًا تحزن يوم موته، وتقيم له مأتمًا، لكنها
بعد أيام تشتري غيره.

أسمعها وأنا شاردة، ثم أرد: مش هاقدر أعيش من غيرهم لما
أخرج من هنا.

أشرح لها كم أنا وحيدة، وكم كانوا أشقائي وأبنائي وأصدقائي.
تطلب عليّ قائلة: وحيدة؟ وأنا رحت فين؟ أنا في ضهرك
يابت و معاكي.

أنظر إليها غير مصدّقة ومشفقة لاضطرابها أن تكذب لكي
تواسيني وتطمئني.

فترد على نظراتي المتشكّكة: لا يا ونسة وكتاب الله لا يجاملك
ولا بأكذب عليك ولا هو كلام فض مجالس.

تعيش أم عزة وحدها بعد أن تزوجت بناقها الثلاث، إحداهن
تعيش مع زوجها في الشرقية، ولا تأتي لزيارتها إلا في الأعياد
والأخرتان سافرتا إلى الخليج مع زوجيهما، ولذلك انتقلت من كرداسة
إلى السيدة زينب، لتجاور الست، وتعيش في مكان شعبي مزدحم.

أسألها بتدُّد: يعني تقدري تعيشي في شقتي بدل شقتك

تقترب مني وتحتضني، فادفن رأسي في صدرها، أرتاح لدرجة
النعاس لكنني أفيق على ضحكتها وهي تقول : اسمعي الول حكايتي
أنا وبناتي.

أشجّعها على الحديث، فنحن حقًا صديقتان منذ ما يقارب
العامين، لكنني طالما سمعت منها حكايات الأخرجات ولم أسألها أبدًا
عن حكايتها مع "أبو عزة"، ومن هي عزة التي تُكثي باسمها رغم أنه
لا يوجد من تُسمّى عزة بين بناتها.

تحكي لي الكونتيسة أم عزة أنها كانت في شبابها جميلة، وأنها
نشأت في منطقة كرداسة، وطالما تمنّاها أحسن الشباب وأجدع
الرجال، لكن قلبها لم يدق سوى لإسماعيل.

تقول أم عزة وهي تلبع بق البيبيسي الأخير في العلبه أنها حين
رأته لأول مرة كان فتى وسيمًا ألفت به تقلبات الأيام إلى بحر الشقاء
والفقر، عزيز قوم ذل جاء مع والدته ابنة الحسب والنسب التي يمتد
سلسالها إلى باشوات ما قبل يوليو، والتي عاشت على آثار سنوات
العز بضع سنوات، حتى استشهد زوجها في حرب ٦٧، وغدرت
الأيام بينت الحسب والنسب التي تتحدث أربعة لغات.

لم يكن معاش القوات المسلحة يكفيها هي وابنها فحاولت أن
تعمل لكن الوظائف تخنق مثيلاتها ممن اعتدن الحرية وإعطاء الأوامر لا
تلقونها، غادرت القاهرة إلى كرداسة، تلك البلدة الصغيرة في أطراف
الجيزة، وبدلاً من الفيلا الفخمة ثم الشقة الأقل فخامة بالقاهرة،

سكنت فريدة هانم شقة بسيطة في كرداسة، فأصبحت جارة لعائلة أم
عزة المسماة وقتها "أمورة".

ولأن فريدة هانم كان لا بد أن تجد عملاً مناسباً لها، فقد قرّرت
أن تستغل موهبتها في تصميم الأزياء، ولكنه نوع خاص من الأزياء،
فقد استهوتهما بدل الرقص الشرقي تلك الهواية التي دفعت بها إلى شارع
محمد علي، كي تتعلم أصول التصميم والتنفيذ على أيدي واحدة من
الأسطوانات المعدودات في مصر.

إسماعيل الذي قضى عامين بكلية التجارة ومثلهما بالآداب،
صمّم ألاّ يكمل تعليمه، فقد كان ابن أمه يكره أن يلتزم بأي شيء،
لم يعتقد أن يتقيد بشخص أو مكان أو طقس أو عادة يومية، لم
تستطع والدته إلا أن تعلمه مهنتها الجديدة، ولحسن حظه لاقت قبولاً
لديه، إذ غازلت "الحته الفنية" عنده والتي كثيراً ما راغت منه، ولم يكن
يلمسها.

كان يهرب من المدرسة ليرتاد السينما، ويحفظ حوارات الأفلام
العربية القديمة عن ظهر قلب، يهيم عشقاً بنجمات السينما وفاتنات
الرقص الشرقي.

بسهولة شرب الصنعة وأتقنها، كان يتفنن في تنفيذ رداء ينسدل
على جسد راقصة، يذيب به قلوب المعجبين وينتزع تصفيقهم.

السر في البدلة هكذا كان يردد دائماً ألم يقل المثل لبس البوصة
تبقى عروسة؟ فما بال لو كان هو مسئولاً عن إلباس صاحبات الجسد

الطري اللدن الذي تمبه الموسيقى حركات تبرز استدارات وانحناءات
فوق استداراته وانحناءاته؟

ذاعت سمعته في الوسط الفني، وحين عشقته إحداهن ولم يستطع
أن يلبي رغبته في الرفق لأنه يخشى الله أهالت على سمعته التراب،
وتراجع مشروعه كترزي شهير للراقصات بعد عدة شائعات أطلقتها
ضده، وبعد أن استعانت بما لها بأكثر من ترزي منافس ونجمتهم
لتسحب منه شهرته، انحسرت عنه الأضواء لكنه ظل يعمل في تلك
المنطقة الوسطى بين الشهرة والتميز وأكل العيش.

تحكي أم عزة إنها لفتت نظره "بأنوثها المتفجرة، بجعلها
وأحلامها البسيطة، وجدعنتها.

ووسط فرحة ومباركة العائلتين اقترن بها اسماعيل فقد رحبت
أسرتها بابن الحسب والنسب، ورحبت فريدة هانم بزواج واستقرار ابنها
المدلل وعاشت مع إسماعيل في حب اقترن بحلاوة الكفاح من أجل
لقمة العيش، أنجبت منه ثلاث بنات، لكن تأخر قدوم أولهن خمس
سنوات. لم تشعر أبداً بلهفته على الإنجاب فقد كان يعاملها كطفلة

مدللة، حتى إنه قرّر أن يشتري لها قطة تسليها إلى أن يمنحها
الله الذرية وسماها عزة، وأصبح يناديها الكونتييسة أم عزة، وأصبح هو
أبو عزة تأثراً بصلاح السعدني في مسرحية الملك هو الملك.

لم ينس أبو عزة ميوله الفنية يوماً، بل إنه اتجه في فترة لكتابة
الروايات والقصص، ومنها قصة فيلم مثله نور الشريف تسألني أم عزة
بفخر: سمعتي يا ونسة عن فيلم اسمه أقوى الرجال بطولة نور الشريف؟

وقبل أن أجيب تواصل أم عزة لتحكي أن الفيلم من تأليف زوجها أبو عزة وقد سرقه المخرج منه عن طريق ريجسير أوهمه بأنه سيشتريه منه ولم يستطع أبو عزة إثبات حقه فلم يكن لديه نسخة من القصة ولم يسجلها في الشهر العقاري كما كان يجب أن يفعل. كان طبيًا، سليم النية لا يعمل حسابًا لغدر الناس ولؤمهم.

لم يكن يؤرقها إلا ميله الشديد للتبذير، وعدم مقدرته على أن يحسب حساب المستقبل، دَلَل البنات فكان يلجئ لهن كل مطالبهن، ينفق ببذخ لآخر مليم معه، وإذا أفلس راح يغني ويرقص مع بناته ومعها.

كانت تضحك عندما تتغامز النسوة من الجيران والأقارب والمعارف: "مجانين"؛ معاهم فلوس؛ فرحانين ويرقصوا. مفلسين؛ مبسوطين ويغنوا.

طالما حدّرتها النسوة من اختلاطه بالراقصات، وأنه ربما يهرب مع إحداهن، لكنها لم تشعر أبدًا بالغيرة، وكيف تغار وهو يشعرها دائمًا بأنها الملكة المتوّجة على عرش بيته وقلبه ومالكة مفاتيح الرغبة في جسده؟

شربت منه صنعة تفصيل بدل الرقص، شاركته الاختلاط بالراقصات، تعاطفت مع حكايات بعضهن بل وبكت واحتضنت أخريات، ونظرت بحسد لبعضهن ممن اخترن المهنة عن هواية دون ضغط من حاجة أو ظروف اجتماعية قاسية.

وكما ظهر إسماعيل في حياتها فجأة، اختفى فجأة، توفاه الله دون مرض أو صرخة ألم.

ففي ذلك اليوم كما تحكي ودموعها في عينيها استيقظ وصبح عليها، ثم قبلها في فمها واتجه للحمام، في دقائق كانت قد ارتدت قميص نومها الأسود القصير الذي كان يموت على جسدها الملفوف بداخله، أما هو فاغتسل وعاد إلى السرير مرة أخرى، نادته وهي تضع الراج على شفيتها فلم يرد، راحت تقلب في جسده وتحاول إيقاظه، وحين اكتشفت أنه فارق الحياة سقطت مغشياً عليها، وأفادت بعد ذلك على صراخ بناتها وولولتهن فأخذتهن في حضنها ونظرت إلى صورته المعلقة على الحائط، وتذكرت أن الحزن كان عدوه الأول، وأنه جاءها في غيبوبتها القصيرة لينام معها ويكمل مابدأه في الصباح قبل أن تفارق روحه جسده وهمس في أذنها وهو يحتضنها كوني قوية يا امرأة.

قالت للبنات: " لو سمعت واحدة فيكم بتصرخ ولا بتعيط حتى هاكسر ضبها بمقص الخياطة"

في تلك الليلة بئراً في حزن الحزن و الألم والفقد، ورغم عدم مقدرتهن على الضحك والابتسام إلا أن كلمات الأم أسبغت عليهن هدوءاً، وجعلت آيات القرآن التي لم تكن تغيب عن البيت مهمتها سهلة.

حين فرغت من حكايتها كنت أمسح دموعي تأثراً، فرغعت ضحكة مجلجلة قائلة: "يابت أنا باحكيك عشان تعرفي قد إيه الدنيا

بتدي وتأخذ وقد إيه تعبت لحد ما ربّيت البنات من بعده، الحمد لله
كبروا واتحوزوا وأنا باشتغل دلوقت لمزاجي، عشان ما اعجزش من
القعدة لوحدي، ولأ الشيطان ياكل بعقلي حلاوة.

انصرفت أم عزة وتركتني على وعد أن تأتي يومًا بعد يوم لزيارتي،
ثم تستقر معي في شقتي حين أخرج من المستشفى..

العلاج الذي كنت أتناوله في المستشفى يشبه علاج منع القيء،
فكما تكتم حبة من شريط صغير رغبتك في القيء وتمنع خروج الطعام
إلى الفم فيما تشعر بمحاولات هروبه إلى زورك، كذلك يفعل علاج
الاكتئاب في بدايته، إحساس غير مريح ولا موجه، أشعر أنني بحاجة
لللكاء الشديد على فتراني، على حياتي الضائعة أريد أن أطم،
أصرخ، لكن هناك ما يهدّئي رغماً عني، هناك ما يحوش الأم
بداخلي، ويحاول إعادته إلى نقطة بعيسيسيسيسيدة.

عندما مرّ على خمسة أشهر في المصحّة، وبدأت أتعافى وأقرب
من الشفاء تعرّفت على سماح وأمها أمال؛ كانت سماح التي نخطّت
الثلاثين شبه مرافقة لأمها المريضة بالزهايمر، تزورها يوميًا تجلس بجوارها
فقط لتلجّي حاجتها للماء أو تناول الطعام، ولتأتي بالمرضات ليغيّر
لها الحفّاضات، فهي قعيدة الفراش منذ خمس سنوات، أتوا بها إلى
المصحّة بعد أن تدهورت حالتها.

الأطباء قالوا إن لا علاج لها، أبنائها يعتبرون الأمر مجرد تغيير
جو علّها ترتاح قليلاً، فالمكان أفضل من دار للمسنين قد لا يقدر
من فيه ظروف مرضها.

روت سماح لي حكايات عجيبة عن أسرتها وعن أمها؛ فالأم وكما يبدو حتى في سنها المتقدم هذا كانت فاتنة في شبابها، توفي زوجها ومازالت في الثلاثين، كان يعمل في تجارة الأخشاب، لديه مغلق خشب بالمرج لكن أهله يأكلون مال النبي، كان يكبرها بسنوات تتعدى العشر، لم تكن تستطيع أن تثني له كلمة، كثيراً ما حاولت تحذيره من رغبات إخوته وطمعهم فيه واستكثارهم الرزق عليه، لكنه كان سليم النية محباً لإخوته.

توفي الأب فجأة بأزمة قلبية، فيما كانت كل أمور المغلق في يد أخوته. أبنائه الأطفال وقتها محمد ورضوى وسماح لا يدركون شيئاً عن الحياة حولهم، محمد في الإعدادية ورضوى في سادسة ابتدائي وسماح الصغرى في خامسة.

تروي سماح أن أعمامها استحلوا أموالهم، ورموا لهم بالقليل بعد أن باعوا المغلق مدعين الخسارة وتراكم الديون.

انقهرت الأم، لم تستطع إثبات شيء ضدهم، أصبح عليها نزول بحر الحياة وحدها، عملت في مهن كثيرة؛ سكرتيرة، بائعة في محل، طبّاحة، مديرة منزل، صناعية في مشغل، أو كوافير، بائعة في محلات أطعمة، عاملة في مصنع. كانت تدبّر اليوم بيومه لتربيهم، أطول مدة قضتها في عملها كانت ستة شهور. فلأنها جميلة، ذات جسد لا تخطئه شهوة رجل كانت دائماً محل رغبة في الاضطهاد، إن لم يكن في الحرام، ففي الحلال السري الذي لا يفرق كثيراً بالنسبة لها.

وتحكى سماح عن أمها التي لم تكن معدومة الرغبة أو الأحاسيس، فرغم صغر سنها كانت تراها أحياناً تتأمل نفسها في المرآة متحسرة على جمالها الذي يذبل ولا يد ترعاه، ولا كلمة حلوة تسمعها خارجة من قلب رجل حقيقي غير طامع.

تتكور في سريرها ليلاً بعد أن ينام أطفالها، تكلم نفسها قائلة: همشي جنب الحيط لا "جوّه" الحيط عشان ولادي، تكرر لنفسها أنها لن تسمح لأحد بأخذها منهم أو تلوّث صورتها في نظرهم، لن تسلّم قلبها ولا جسدها لأحد، لن تدخل رجلاً على أولادها حتى لو كان أحد أعمامهم.

الأعمام راحوا يتعازمون للزواج بها، فيما تأتيها رسائل التهديد والوعيد من زوجاتهم اللاتي رحن يدبرن الأمور حتى يبتعدن بأزواجهن تماماً عنها وعن أولادها.

تهمس لنفسها: يارب انت خلقتني جميلة ودي لعنة على نفسي وعلى ولادي ثم تستغفر ربها وتنام.

كانت تذهب إلى عملها نهاراً، وتسهر ليلاً تفكر في كيفية استمرارها في العمل تحت ضغوط نظرات من تعمل معهم، أنهم ينزعون عنها ملابسها قطعة قطعة بعيونهم الجائعة، يلتهمون العسل السائل من شفثتها حين تتكلم، يمضغونها بأفواههم، ويضعونها بين فخوذهم المشعرة ليلاً.

تبيت متقلبة في فراشها وحيدة، ويبيتون يدبرون الخطط للإيقاع بالأرملة الجميلة، تهب رياح اشتهاهم لها على دارها فلا تجد إلا

الصد، فهناك في قاع قلبها بئر مفتوح لكل بهجة أو اشتها تشعر
بهما تجاه رجل.

ظلت تناور قلبها وجسدها وتخطف لقمة العيش من فم الأسد
عشر سنوات.

ودائمًا ما تقطع طلبات أم سماح الحكاية التي ترويه سماح، فأنظر
مشدوهة لأم سماح ذات الستين، وقد تهدّلت خدودها، وقصّوا لها
شعرها الذي لا يخلو من نعومة وجمال رغم العجز والشيب، عيناها
زائغتان ولسانها ثقيل، لا تنطق إلا بكلمة أو اثنتين، ليس لديها سوى
الصراخ لتطلب ما تريد.

حين وصلت لسن الأربعين بدأت تتابها أعراض التوهان،
والانفصال التام عمّا يدور حولها على فترات متقطعة.

كانت سماح تعود من الجامعة فتجد رائحة الشياطين تملأ البيت،
تجري إلى المطبخ لتطفئ الموقد على الطبخ الذي نسيت أمها وقد
التصق بقاع الحلة مكوّنًا سواداً ورائحة خانقة، تعتذر الأم لابنتها
وتبكي وتقوم لتنقذ وجبة الغذاء فلا تستطيع.

في اليوم التالي تتكرر الحكاية، تبدأ سماح وأخوتها في التهامس
حول حالة الأم، تدخل عليهم في حجرتهم فيصمتون، يعرضونها على
طبيب فينصحهم بعرضها على طبيب مخ وأعصاب، وينتهي
التشخيص إلى أنها مصابة بالزهايمر، ويقول الأطباء إن الحالة النفسية
والصراعات الحادة التي تعرّضت لها بعد ترمّلها هي أحد أسباب تفاقم
المرض والإصابة به مبكرًا بجانب استعدادها الوراثي.

في بداية المرض كانت تخرج ليلاً أو نهارًا، تجوب الشوارع بلا هدف، تجري سماح هنا وهناك بحثًا عنها، تحمل دراستها في الجامعة وتنسى مواعيد محاضراتها، تترك شعيرات وجهها بلا تنظيف، تشد البنطلون الجينز وال "تي شيرت" لتخرج عائدة بأمها إلى البيت.

تحكي سماح عن خمس سنوات من التوهان والذهول والبحث عن لا شيء، ربما كانت تبحث عن قلبها وعقلها لتصلحهما على جسدها، ربما كان عقلها يرفض ما فعلته بنفسها حين دفنت أنوثتها، ورغباتها في قاع أسود طاله الصدأ وأكلته الوحدة.

رأها بعضهم تتعرّى كاشفة صدرها في عرض الطريق، وعندما أخبروا سماح وإخوتها جرت سماح واحتضنتها، ولقّتها بشال كبير وهي تبكي، فيما كانت الأم تنظر إليها ببلاهة وهي تضحك قائلة: الشال ده بعتهولي أنني عريس فيهم؟ يابت قلت لك أنا مش عايزة الحلاوة، على إيه أشد شعر جلدي، وأنعم جسمي، أنا ببات لوحدي مفيش حد أنعم له جسمي يا ولداه.

تحاول سماح إسكاتهما بلطف، والجيران يمصصون شفاههم ويدعون لها بالشفاء.

حين لجأ الأبناء لطبيب أعصاب لكي يعطيها حقنة مهدئة ليتمكنوا من النوم قليلاً باطمئنان، وصف الطبيب حقنة قال إن مفعولها يستمر ثلاث ساعات، لكنها منذ عشر سنوات وهي طريحة الفراش لا تغادره صارت تنام كثيرًا، ولا تنطق وضعف بصرها، رغم

خطأ الطبيب في وصف الحقنة التي جلبت لها العجز إلا أنهم سكتوا جميعاً، فقد أصبحوا يستطيعون النوم بعد أن صارت قعيدة.

في اليوم الأول للخروجي من المستشفى كان إخوتي قد أعدوا كل شيء، الشقة تم عرضها للبيع بعد وصلات طويلة من الزن على الآذان الذي يشبه السحر من زوجاتهم.

فوجئت وأنا أدخل العمارة أن ورقة قد تدلت بجبل من بلكونتنا وقد كتب عليها شقة للبيع ورقم تليفون أخي الأكبر إبراهيم.

نظرت إلى إبراهيم معاتبه، لكنني ابتلعت كلاماً كان صعباً أن يخرج على لساني.... إبراهيم فهم المقصود، وبمجرد دخولنا الشقة راح يسحب الورقة المدلاة من البلكونة، فيما رحلت أتلّمس حياة كانت هنا نابضة منذ أشهر قبل أن يأتي موظفو الصحة لإبادة الفئران.

رحلت أفئتّش تحت السرير، وخلف الكنب، والكراسي، وفي المطبخ، والحمام، لكن بلا جدوى.

الشقة التي كان قد تم تنظيفها تماماً لم تكن تشي بوجود أيّة روح غير آدمية، جلست أبتلع مرارتي بعد أن خلعت طرحة رأسي.

سألني إبراهيم أن أتناول معه عشاءً، فمادمت قد صمّمت ألاّ أذهب إلى بيت أحدهم، فلنتعشَ سوياً قبل أن يتركني، أشرت له بيدي أن لا، ثم رحلت أنظر لنفسي في المرآة..

من الصالة أتاني صوت إبراهيم وقد أعدَّ كوبين من الشاي وهو يقول :اوعي تزعلي ياونسة بالله عليك، انسي موضوع عرض الشقة للبيع، المهم صحتك وسلامتك، وراحتك.

ثم راح يقسم ويؤكد لي أنني مادمت لا أريد البقاء في بيت أحدهم فلتلغ فكرة بيع الشقة، وأن بيت أبونا سيظل مفتوحًا ولن يباع.

في تلك الأثناء كنت قد دخلت السرير ورحت في النوم بعد أن ابتلعت الدواء المهدئ الذي أوصى به الطبيب قبل مغادرتي المستشفى.

خرج إبراهيم وتركني نائمة أحلم بفئرائني حيث كان صباحًا مزهرًا والشقة مليئة بالورود، والفئران حولي في كامل زينتهم نرش فقاعات المياه بالصابون على بعضنا البعض، ويحاولون أن يفيقوني من نومي وأنا بين الدلع والوخم. أحاول أن أصحو، لكن فجأة تختفي الفئران من أمامي، ولا يبقى إلا جدران الشقة وأثاثها.

أفيق من الحلم بريق ناشف، أبحث عن زجاجة مياة مثلجة فأجد الثلاجة فارغة رغم أنها شغالة، ألعن: ولاد الكلب ماهانش عليهم يتلجوا شوية مية.

أعرف أن أسماء ومرورة جاءتا للتنظيف مرغمتين لإرضاء زوجيهما، لكن كان لا بد أن تتركنا بصمة من قلّة الذوق وعدم الاعتناء الحقيقي.

أشرب من مياه الحنفية وأنا أتذكر ما كان بيني وبينهم في أول لقاء، ثم أبكي لفقدهم وتوحشني أيامهم فأجلس لأكتب مذكراتي: رجعت النهارده من المستشفى وهاحاول أبدأ حياة جديدة مش لازم حد يشمت في، ولا يضحك علي، أنا مش مجنونة مش مجنونة، أنا كمان مش مريضة نفسياً أو حتى عندي عُقد أنا طبيعية جداً، مش عارفة إيه المشكلة إني ربّيت فيران؟

أنا مالقتش وَنَسَ ولا ود غير معاهم.

اللوم عليا ولأ على اللي حواليا؟ أنا محدش علمني أكذب أو أنافق، يمكن إخواني الولاد اتعلموا الحاجات دي برّه البيت، عشان خرجوا ولُفُوا وسافروا هنا وهناك.

"أنا رجعت تاني وحيدة من غير أصحابي الفيران، ومفيش قدّامي غير إني يا إما أرجع أربّي فيران تاني، وأرجّع ذكرياتي الحلوة معاهم، يا إما أرجع أقعد قدّام المسلسلات التركي، يا إما أحاول أغيّر نفسي شوية، وأهتم بشكلي يمكن أتجوّز، وأخلف أولاد يغنوني عن الهم ده كله ويوتسوني."

أقوم لأنظر لنفسي في المرآة حيث تطل شعرة بيضاء بلا حياء في مفرق الرأس، إنه الشيب المبكّر الذي ورثته عن أمي وجدتي، بينما ورث أخواي الصلع عن الأب.

أحمد الله ففضاء أخف من آخر، أزيح شعري للخلف وألمه ثم أفرد بشرتي بيدي، وأتصفح كتالوج المكياج الذي تركته لدي سلمى جارتني قبل أن يدخلوني إلى المستشفى.

أفتح الراديو لأستمع إلى برامج خفيفة من تليفوني، فيصافح أذني صوت طبية نفسية شهيرة استضافها البرنامج تقول: لا بد أن تصالح المرأة نفسها وأن تتصالح مع جسدها، هناك كثير من النساء السمينات سعيدات، ولا يرغبن في النحافة، وهناك من يتعدن إذا زاد وزهن ولو جرام واحد.

لا تنظري إلى مقاييس جمالية تشعرك بالإحباط، أنت لست نجمة تنفقين الأموال على جسدك، ومظهرك لتبدين بشكل تحلم به الأخرى، ثم أن حتى النجمات بعضهن لا ترضين عن أجسادهن ومنهن جوليا روبرتس مثلاً.

ارض بنفسك، تقبلها وأحبها، فلكي تجدي من يجبك لا بد أن تخرج طاقة إيجابية من داخلك تحمل رضاك عن نفسك إلى الآخرين، انطلقني قولي للعالم أنا كده، أحبني كما أنا.

سرحت طويلاً في كلام الطبيبة، تمنيت لو استطعت تنفيذه وسألت نفسي: ولم لا؟

أقول لنفسني: أتصالح يعني إيه؟ وليه أصلاً يبقى شكلي مش حلو قوي؟ ليه ما اتولدتش بيضا وشعري ناعم وخدودي تفاحي وعيني ملونة وعودي حلو، سمباتيك في اللبس، مش مغري بالنظرات الوقحة؟ قررت أن آخذ بنصيحة الطبيبة مع بعض التعديلات في مظهري لأكتسب ثقة في نفسي.

تذكّرت أُنِي وضعت المكيّاج مرّات قليلة، ونادراً ما فردت شعري
في الكوافير لأحضر فرحاً أو عيد ميلاد صديقة، وقتها كنت أبدو جميلة
وأحياناً ملفتة للنظر.

تذكرت أيضاً تلك الأوقات التي كنت أرى فيها تزواج الفئران،
والمشاهد العاطفية بين الفنانين.

في الصباح تناولت إفطاراً خفيفاً جلبته بالسبت من السوبر
ماركت، وعندما لاحظت تردّد صبي البقال في إجابتي همست
لنفسي: والله لو اللي في دماغي طلع صح لأمسح بيبك شوارع السيدة
زينب يا علاء الكلب.

عندما خرجت سمعت أم هدير على السلم تتمتم: سلام قول من
رب رحيم اللهم احفظنا الحمد لله الذي عافانا.

ألقت تحية الصباح ونزلت السلم بسرعة دون أن تلتفت ورائها
في الشارع لاحظت تهامس النسوة، ونظراتهن لي، لكنني تجاهلت
كل ذلك ودخلت إلى الكوافير.

قبّلتني داليا الكوافيرة وهي تستقبلني بحفاوتها المعتادة: حمد الله ع
السلامة يا ونسة ربنا ما يعيّيك تاني، ألف سلامة ليكي.

نظرت إليّ جيهان ابنة أم تامر التي كانت تجلس تحت يدي داليا
لتفرد شعرها وقالت: المهم يكون ربنا شفاها من موضوع الفيران ده،
وربنا يهديها لحسن جابت لنا كلنا رعب، أنا مامتش ثلاث ليالي بعد
ماموتوا الفيران والمصيبة إني شفت جثتهم وكانوا كبار قوي إنت كنت
بتأكلهم إيه؟

شردت ولم أعرف بما أرد ثم ابتسمت بهدوء استجابة لنصيحة الطبيب الذي قال لي إن ما لديّ ليس جنونًا كما قد يظن البعض، إنه اكتئاب تمكّن منّي وجعلني لا آمن لأصدقاء إلا الفئران، وقال إني إنسانة طيبة ولدي ميول رائعة لمساعدة الآخرين والوقوف بجوار الضعفاء وربما كان إحساسي باحتياج الفئران لي كصديقة ترعاهم هو ما دفعني لذلك، لكنني بالغت في هذه الصداقة حتى طغت على مصلحتي فأصبحت مهدّدة لسلامتي الشخصية والنفسية، إذ أنها تمنعني من التواصل مع البشر، وتعزّز عزلي عن العالم.

نصحتني الطبيب ألاّ أعامل الناس بخشونة حتى لا ينفروا مني، وأن أعاملهم على قدر عقولهم.

جيهان بنت تربّت جيدًا، خريجة جامعة، لماذا يفترض أن يكون عقلها صغيرًا؟

ألا يدرسون شيئًا في الجامعة عن مراعاة إحساس المرضى أو المكتئبين أو هؤلاء الذين فقدوا عزيزًا عليهم ولو كان حيوانًا؟

والله ما دخلت الجامعة ولا شفتها، لكن جدي علمني إن الحيوان روح، ولازم نحترمه ونزعل لو فارقتنا، والنبات كمان روح لازم نحاف عليها.

أخرجتني داليا من شرودي قائلة: جيهان خلّصت تعالي أعمال لك شعرك يا أحلى بنوثة.

سخرت هامسة: أحلى بنوثة؟

فردت داليا: رنا يساعها أمك يا ونسة إزاي خلّتك مش واثقة
من نفسك كده؟

أمي لم تكن تدلّني كما تدلّ البنات، وفي ساعة الغضب لم
تكن تناديّني إلا بكلمة "وحشة"، "روحي يا وحشة تعالي يا وحشة".
كانت تحبني، لكنها كانت امرأة لا تعي ما يخرج من فمها ساعة
الغضب، لا تدرك أن ذلك ربما رسخ في ذهن ابنتها وعاشت به.

تسألني داليا: إنت ليه ماتكّمليش تعليمك؟ إنت ناصحة وذكية
فيه جامعة مفتوحة دلوقت أنا بادرس فيها، أنا تعليم متوسط زيّك
ودخلت كلية تجارة جامعة مفتوحة، ما تدخلني يا ونسة وأهو نبقى
نروح ونيجي سوا.

شعرت أن ما تقوله داليا هو عين العقل لكني ترددت قليلاً ثم
سألت داليا: جامعة مشتركة؟ أولاد مع بنات؟
تدوّي ضحكة داليا وهي تحييني أنني لا بد أن أكسر خجلي هذا،
لا بد أن أعيش حياتي، وأتعلم التعامل مع الناس.

الكلام يدخل من أذني إلى عقلي فأفكر وأسأل لكن هاعمل إيه
بالشهادة؟ أنت نفسك هاتعملي إيه ما أنت كوافيرة وبتكسي؟.

ترد داليا: بصّي يا ونسة التعليم مفيد في كل الأحوال، على
الأقلّ تخرجي شوية من دايرة الشارع والسيدة زينب، وتعرفي أصحاب
جداد، وتشوفي الدنيا.

- تعرفي يا ونسة؟

- إليه؟

- أنا كنت شاطرة جداً في المدرسة ربنا يسامحه أبويا طَلَّقَ أمي
ومكانش بيصرف على تعليمي، واضطريت أدخل ثانوي
تجاري بدل عام عشان أخلص بسرعة واشتغل لكن فكرك
أستسلم؟

ينقضي الوقت في الكلام، وأخرج من تحت يدي داليا مفرودة
الشعر فأبدو واحدة أخرى؛ زججت حاجبي، وأزلت شعر الوجه
الزائد، فازدادت ملاحي رقة أكَّدت لي إيَّها صورتي في مرآة الكوافير.
تقول داليا أنني جميلة، وتنصحي أن أهتم بنفسي وسأرى قمرًا
في المرأة.

ألف الإيشارب وأخرج، لا يبين شعري للناس، لكنني أشعر أن
تحت الإيشارب أنثى جميلة بشعر ناعم، تفوح منه رائحة المكواة
واسبراي تثبيت الشعر.

أشترى فرخة وخضار ثم أسير متجاهلة نظرات البعض المندهشة،
ولا ألقى بالأل إلا لمن جاءت تحتضني وتسالني عن صحي.

في المساء أتلقى تليفونات أخوي للسؤال عني، وأغرق نفسي في
قراءة الروايات العاطفية، لكنني أفكر وأسرح فيما قالته الجامعة
المفتوحة.

في الصباح فتُ على بيت داليا لتذهب معي إلى الجامعة نسأل
عن أوراق التقديم للدراسة.

الفصل الخامس

بدأت أسعى جاهدة للالتحاق بالجامعة لكي أغيّر حياتي وأصبح فتاة جديدة.

ساعدتني داليا، وقرمت بإجراءات التقديم ودفعت المصروفات، ثم ذهبنا إلى منطقة وسط البلد لشراء ملابس جديدة.

دخلت إلى بروفات المحلات، أقيس هذا وأبدّل ذلك، أراني في المرأة بنفستان عاري الكتفين، أسدل شعري ثم ألمه إلى أعلى، وأفرد طولي بعد أن انخفض وزني أثناء فترة العلاج..

أحدّق طويلاً لأجد أمامي فتاة لم أرها من قبل، فلم أجرب يوماً أن أرى كل تفاصيل جسدي مع وجهي وشعري، لا بأس بتلك الفتاة التي أراها أمامي الآن.

أبدو أقرب للطول، مشوقة القوام مع بروز خفيف للبطن، ومؤخرة تقول عيون الوقحين أنها مثيرة، عينان سوداوان تسكنهما الدهشة والوجع والرغبة وحب الحياة، رغم الوحدة والألم وضياح الأحلام، حدودي ليست بارزة لكن أنفي به جمال ما، سمري؟ مالها؟ ألا يقولون أن السمار نصف الجمال؟

ثم أي أنتظر من يجني لشخصي، لا من يجني لجسدي الفائز أو وجهي المعنى بتفاصيل جماله.

ألقيت بطرحة الرأس بعيداً وخرجت لترايني داليا بدونها في بلوزة
كتان يبيع وينطلون جينز أزرق.

صرخت داليا دهشة وفرحة وهي تقول: الله يا ونسة قمر والله
أيوه كده كيدي الأعادي.

هزرت كنتفي خجلاً وجريت عائدة إلى البروفة لأعيد ارتداء
ملابسي وطرحتي.

وفي لحظة شجاعة وربما جنون قررت شراء البلوزة الكتّان
والبنطلون، وخلع الطرحة نهائياً، لأسير بشعري كبنت أخريات قد لا
يكنّ كثيرات في حيننا لكنهن يثرن غيرتي بانطلاق شعورهن في الجو
تنثر الحياة.

لكم تمنيت أن أبدو جميلة ولو لساعة، ربما حقق لي ذلك هذه
الأمنية.

لا أظن أن الله يغضب عليّ لأني أريد أن أبدو في كامل أنوثتي.
كنت أفكر في كل ذلك داخل البروفة، وفي عشر دقائق كنت قد
حسنت أمري.

خلعت ملابسني مرة أخرى، وأعدت ارتداء الطاقم الجديد،
وتركت شعري ينسدل على كنتفي، وخرجت ممسكة بملابسي القديمة
البنطلون الواسع والبلوزة الحرير الفضفاضة، وضعتهما في كيس
وحاسبنا المحل وخرجنا للشارع.

نظرات الإعجاب بي من الشباب وإن كان بها وقاحة إلا أنها
عَوَّضتني كثيراً عن إحساسي بالقبح الذي لازمني طويلاً بلا داعٍ، وإن
كنت لم أتخلَّص بعد من هذا الإحساس.

أحب تموجات شعري، لكن بفرده في الكوافير صرت أبدو فتاة
جذابة ولا أنسى أن لي جسداً فاتناً.

هكذا اكتملت الصورة، سيرى يا ونسة وقولي للأرض: "أتهدي
ماعليكي قَدِّي"

صممت أم عزة على البقاء بجواري رغم رفض بناتها وأزواجهن
ذلك، وإلحاحهن في أن تقيم مع إحداهن، لكنها كانت تجد حرجاً في
الإقامة مع أزواج بناتها، وترتاح لقضاء الوقت ما بين بيتها وبيتي تقرأ
أم عزة فنجان قهوتي وهي تضحك متفائلة دون سبب واضح.

تقوم بقراءة الآية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم ((ألا يعلم من
خلق وهو اللطيف الخبير)) ١٢ مرة مغمضة العينين ثم تمسك
الفنجان من نفس المكان الذي مسكته منه وبنفس الطريقة عند رفع
الفنجان تقول بسم الله الفاتح.

ترى أم عزة في تعاريج صنعتها القهوة ما تقول أنه إشارات
وعلامات تدل على المستقبل، تنقبض ملامحها قليلاً وهي تخبرني عن
ثلاثة نسوة ينتظرن مني كلمة الموافقة على بيع عقار، أشيح بيدي لها
:قديمة، غيرها.

تبتهج وهي تشير إلى ملامح رجل يظهر في الفنجان وتقول إنه
أسمر، طويل ذو شارب خفيف وشعر ناعم وأنه معرفة قديمة، وينتظر
منذ فترة الفرصة المناسبة ليفاتحني، أضحك بملء فمي وأنا غير مصدقة
فتؤكد أم عزة بثقة: ربنا يجعله من نصيبك

لم أعد محبوسة في قفص انتظار ابن الحلال، لدي حياة جديدة
صارت تشغلني، فبعد مرور سنة على دراستي بكلية التجارة صرت
فتاة جامعية عصرية بمعنى الكلمة، أرتاد السينما مع داليا وصديقاتنا
الأخريات، نسير في الشارع بلا خوف، نأكل السندوتشات والآيس
كريم ونضحك من قلوبنا.

أعوّض ما فاتني، فقد أصبح لدي هدف واضح أن أنهى دراستي
وأعمل في وظيفة محترمة أو أدخل في مشروع خاص، كوافير مثلاً مع
داليا.

في السنة الثالثة من دراستي بعث كل ما أملك من ذهب تركته لي
والدي، واقترضت بضمان المعاش مع بعض المال الذي ادّخرته في
البنك واشترينا محلاً صغيراً لنبدأ مشروعنا.

أثناء توضيب المحل رأيت فأراً كبيراً يجري بداخله، لا أخفي
عليكم شعرت بجنين لتلك الأيام التي كنا نعيش سوياً فيها أنا وفتراني،
تلك الحيوانات الوديدة المسالمة، وللحق أني لم أشف تماماً من
الاكتئاب الذي دفعتي لتربيتهم واعتزال الناس فقد كان يعاودني بين
الحين والآخر. أحياناً أشعر بالوحدة رغم انشغالي بالدراسة وصداقاتي

بالبنيات من زميلات الكلية وداليا لكن الدراسة يوم واحد في
الأسبوع.

مازلت أعافر مع داليا لينجح مشروع الكوافير ونقب على وش
الدنيا.

ستر الله نعمة صديقتي وتزوجت من ابن عمها وساعدتها
لإصلاح ما حدث لها بعد أن أقسمت لي أن ذلك النذل الذي أحبته
اغتصبها عنوة، وأنها رفضت أن تتزوجه، وقررت أن تتخلّص من
الجنين وتحمل وحدها المصيبة.

في فرحها رقصنا جميعاً، وضحكنا من قلوبنا، وقرصناها في ركبتيها
حتى تورّمت.

صرت أرى في كل رجل حولي عريس محتمل، وفي هذه الفترة
دخل مصطفى حياتي.

حين قابلت مصطفى كنت قد وصلت للخامسة والثلاثين من
عمري ومازلت أدرس بالسنة الثالثة.

كان يعمل بالمحاماة تعرّفت عليه من خلال شلّة صديقتي هند
صاحبة داليا وزميلتها في الجامعة، أخو هند شاب مقطّع السمكة
وذيلها كما يقولون، لم يكن أسمر ولا طويل ولا معرفة قديمة كما قالت
أم عزة، بل متوسط الطول، أبيض البشرة، وبدون شارب، أخذتني
نظراته الجريئة الشقية إليّ، والاهتمام البادي في صوته، تردّدت كثيراً
قبل أن أخرج معه، أنا التي لم تمر بقصة حب حقيقية أبداً، ونسة التي

احتفظت بعذرية مشاعرها وعذرية جسدها، لم يقترب مني شخص
إلا متحرشاً أو في حلم أو خيال.

كانت أول مَسْكَة يد من مصطفى ليدي قصيدة، بل أغنية
تدفقت معها مشاعري وأوثقي فتدفق الدم في كل خلاياي.

القبلات التي طالما رأيتها في الأفلام والتي حلمت طويلاً بها نلتها
من شفتي مصطفى، في مصعد عمارة قديمة بوسط البلد، في السينما،
في شوارع خالية بعيداً عن الأنظار في مركب شراعي بالنيل.

مصطفي وعدني أن يتقدم لخطبتي لكن بداخلي كان هناك
صوت يقول بإصرار: ارجعي يا ونسة هذا الشاب مخادع فيعلو عليه
صوت آخر يقول: استمري يا ونسة إذا لم تعيشي الآن فمتى
تعيشين؟

ظل كلامه المعسول يكتم صوت الرفض بداخلي كان يتسلل إلى
جسدي خطوة خطوة اقتربنا كثيراً وطويلاً، كان يقول لي: جسديك
ملكك يا ونسة تسري به نبضات روحك وقلبك. حرّري جسديك يا
ونسة، كانت هي كلمة السر التي استخدمها معي مصطفى.

يقول: يا ونسة أنا لا أريد اغتصابك، ولا أريد أن أؤذيك فقط
أريد أن أتواصل معك وأبشك أشواق جسدي لجسديك، نحن زوجان
أمام أنفسنا وأمام الله لم يبق لي إلا أن أكمل ثمن الشقة، لأدخل إلى
أخوتك بيدي ملئى وحتى لا يقال إني طمعان في شقتك.

كلماته كانت تستوطن أذني ثم تغادرها إلى قلبي وأعصابي،
تجعلني أتوه في دنيا كلها شغف ومحبة، أرى الناس ملائكة بلا أجنحة.

أقبل أم عبده بائعة الجرجير وأكاد أحمل كل طفل أراه في الشارع،
أجلس كل عجوز في المترو مكاني، أبكي من أجل كل فقير وعاجز
ومريض.

أليس هذا هو الحب؟

الشغف برجل يساوي شغفي بالحياة وعشقي لها، الحب له
عندي معانٍ كثيرة.

لست كمروة وأسماء زوجتي أخوي.

أستطيع الآن وبوضوح أن أعرف الفرق بيني وبين الأخرى،
فهناك من تتزوج لتنجب ولكي لا يقال إنها عانس، وهناك من
تبحث عمّن يعولها أو يمول شراءها للملابس والبرفانات والمكياج،
وهناك من تبحث عن قلب حنون يحتوى أيامها ويطبطنها على كتفها
في مصائب الدهر وآلامه أما أنا فقد كنت أبحث عن حبيب، شريك
لمتعة الحياة، نصف آخر خشن لا استشعر ذكوره فقط في شعر
ذراعيه وصدره وإنما أرى في عينيه رجولة وغيرة وحمية طالما افتقدتها
وحسدت عليها غيري من البنات.

كنت أبحث عن رجل كلما أوحشني تلمّست روحي لأستعيد
بصماته الرهيفة فوق ملامحها.

أشرد أثناء محاضراتي، تضبطني البنات متلبّسة بالابتسام حين يمر
خاطر يحمل لي إحدى كلماته أو قفشاتة، أو دُ لو حدّثت عنه زميلاتي
وجاراتي وأحجار الشارع وعجلات المترو أتمنى لو أنه جاء إلى شرفتي
في المساء ليغني لي فأهبط مسرعة إليه واحتضنه

تضحك داليا لكل ما أقوله وأفكر فيه وتصر أن الموضوع ليس
كما أراه وأن علي أن أهدأ قليلاً فليس كل من قال أحبك يجب
بالفعل.

أتوه في كلامها ولا أجد نفسي، مازالت تتفلسف حتى في الحب،
تقول إني لا أحب مصطفى بالفعل ولكني أحب حالة الحب نفسها،
أنكمش على نفسي وأسكت.

لا أريد أن أحكي لأحد، يكفيني حب مصطفى واهتمامه بي
الليلة التي تعرّيت فيها أمامه في منزله حين غابت أسرته بالمصيف
كانت تشبه يوم عرس حقيقي، عانيت الفرحة المشوبة بالرهبة، توتر
أول لقاء جسدي برجل، تلك المخاوف التي بثتها فينا الأمهات منذ
الصغر، إذا اقترب منك ولد سيفقدك شرفك، إيّاك والاختلاء
بأحدهم.

الحب عند الأمهات هو الباب الملكي للخطيئة، ربما كانت تلك
حقيقة وربما كانت أسطورة، قرّرت أن أوقف تيار هواجسي والهي
نفسي قليلاً بكلام مصطفى المعسول حتى لا أفقده، ثم قرّرت ألاّ
أمنحه نفسي تماماً وأن أبقى بنتاً فما يدريني أن القدر سيجمعنا
كزوجين؟ وهكذا ظللت طوال اللقاء أترنح بين مشاعري نحوه
وشكوكي فيه ومخاوفي تجاه شرّبي وعذريتي.

وهو كاد يقول شعراً في كل جزء من جسدي فأنا الجميلة
المشتهاة، الكنز المدفون، وجنته التي سيسكنها وحده.

كان قلبي يخفق بشدة وأنا مزنوقة بجواره على سرير حجرته
المعدني الصغير المصنوع ليتسع لشخص واحد.

أثناء لقائنا الحميم تعرَّق جسدي كله وأصابني كرشة نفس
مفاجئة رغم أنني في البداية كدت أطيّر فرحًا فأخيراً سأكون بين
أحضان من أحب تلك الأحضان التي أجمت بداخلي صوت الحذر،
وأنت بي إلى مكان مغلق يضمُّنا وحدنا بعد أن ارتدينا ملابسنا،
أحتضني بشدة وقال لي أنني زوجته. خرجت من بيته مطمئنة أنه
زوجي القادم وحياتي مرهونة بحياته.

مرت الأيام بعد هذا اللقاء وبدأت نبرة صوته تتغيَّر معي في
التليفون، يخبو الشوق في اللقاء.

أغالط نفسي، هو لا يتهرَّب ربما كانت الظروف كما يقول
سفریات مفاجئة وعمل متواصل ربما كان يدَّخر ثمن الشقة ليسرع
بزواجنا، أحاول أن أقابله، فلا يمنحني من وقته إلا نصف ساعة
نتناول ساندويتش أو يوصِّلني لمحطة المترو بعد المحاضرات.

الفأر الذي نبش في عيِّ كبر وترعرع وصار يؤرِّق منامي، خرج لي
ذات ليلة ليدكّرني بأنه نَبَّهني وبأن الولد لعب بي وكان يريد أن
يدوقني، كان يريد قضاء وقت ممتع مع جسدي ليثبت رجولته. وها
هو يتهرَّب مني ويفلت من وعوده.

يصرخ الفأر المتشكِّك بداخلي:

الحب الذي كان يهدر من صوته صار خافتاً بطيئاً معوقاً هاجميه
يا ونسة واجهيه بضراوة.....أعرني آخره.

في الصباح هاتفت مصطفى بدأ يسرد أعضاره كالعاده، قاطعته،
علا صوتي وأنا أواجهه بأنه لم يحبني وأنه يتسلّى بمشاعري، صرخ قائلاً
إنني نكدية وغير صبورة وأنانية، لا أراعي ظروفه ثم أتى بها من
مكمنها: نحن لا ننفع كزوجين مبرراً أنه لا يريد من يخنق حرته
ويقيده، ثم قالها صريحة أنت لم تخسري شيئاً لقد كنت في منتهى
الحرص ثم أغلق التليفون في وجهي.

ومعه أغلقت في وجهي دنياي التي صنعتها بعد الشفاء أوسع
أبوابها، سقطت فجأة من عليائي وعدت إلى نقطة الصفر، أنظر إلى
نفسي في المرآة محاولة استعادة ثقتي في ونسة فلا أستطيع.
أحاول الخروج مع داليا وشلتتها، فتعجز إرادتي حتى عن القيام من
سريري.

أيام عديدة مرّت عليّ دون أن أشعر بطعم لأي شيء، فتارة
أشعر بافتقاده، وتوحشني لمسة يديه وأنفاسه الشهية، رائحة عرقه
وعطر رجولته وتارة أشعر بتقزز وقرف منه ومن كل الرجال.
أشرد لساعات وأنا أفكر فيه.

من السداجة تحيّل أن رجلاً يمر بكل هذا حين يفارق فتاة
لا بد أن الأمر لا يعدو بالنسبة لمصطفى أكثر من سيجارة انتهى
من تدخينها.

هذه المرة لم يخرق عزلي وينقذي منها سوى داليا، صديقتي التي صارت أقرب لي من أخوتي، ارتقيت في حضنها وحكيت لها عمّا فعله بي مصطفى، أخبرتها أنني سأعود للعزلة لا جامعة ولا عمل ولا ناس، سأعود لتربية الفئران.

صمتت داليا قليلاً ثم أخذت تربّت على كتفي قائلة: "يا ونسة انت لسه مشفتيش حاجة".

قالت إنها أصغر مني بعامين لكنها تعرف الكثير عن الحياة، وأن الدنيا لا تقف عند أحد.

سألني مستنكرة عن ذلك الذي يستحق أن أعود للوراء من أجله؟ من الذي يقتل في حب الحياة والطموح والفرحة؟

ثم قالت: تعرّني يا ونسة؟

- نعم؟

- عمري ما حكيت لك عن حياتي الخاصة وشقايا فيها

- شقاك؟ أنت؟ داليا ذات الابتسامة الساحرة؟

- يا ونسة كل واحد منا له فيرانه الخاصة على فكرة "ومن

رأى فيران غيره هانت عليه فيرانه".

تغمز داليا وتضحك فأسكتها بحزم: إلا الفيران حي الأول

أراها تضحك دائماً والدنيا لا تسوى في نظرها، لكنها كما تقول

تداري حزناً بذلك القناع الباهت الذي لو دققت فيه قليلاً لما صدّفته.

أمد يدي إلى وجه داليا مازحة وكأني سأنزع عنها قناعاً، فتضربني برفق على يدي وتتضحك.

ندخن سيجارة واحدة سوياً ثم تبدأ داليا الكلام فتحكي كيف بدأ مشوارها مع الرجال مبكراً بعد طلاق أمها من أبيها وما رآته من ظلم على يديه وهي بعد طفلة في السابعة من عمري لم يعد الرجل يعني لها سوى شخص يجيء ليخرج معها مرة في الأسبوع ويصطحبها إلى جدتها أو إلى السينما أو لشراء ملابس أو حلوى.

حتى هذه الخروجات قلّت بعد أن تزوج بأخرى وأصبح له منها أبناء.

ارتبطت بوالدتها كثيراً، كانت تلازمها كظلمها، تكاد تعد أنفاسها، تتذوق ملوحة دموعها وهي تقبلها لتخفف عنها فكثيراً ما كانت تبكي وحدها في الغرفة المظلمة وفي المطبخ وأمام التليفزيون، وأمام المصحف، وأمام أغاني أم كلثوم.

تقول داليا بلامبالاة: أمي كانت بتحب الرجل اللي اسمه أبوياء، معرفش ليه طلقها وسابنا، عمرها ما قالت تفاصيل كانت بتخاف إيني أطلع معقدة أو حزينه أو مشوّهة نفسياً مكانتش متعلمة قوي بس كان عندها كثير من الوعي والطيبة والحساسية

لكن ذلك كله لم يمنع والدتي داليا المرور بلحظات جنون عديدة؛ رأتها داليا الطفلة تقف أمام المرأة عارية تستعرض جسدها وتلعب في أعضائها وتغنج.

رأَتْهَا تَتَقَلَّبُ لِيلاً وَهِيَ تَدْعُو عَلَى أَبِيهَا بِأَبْشَعِ الدَّعَوَاتِ وَدُمُوعِهَا
الْحَارِقَةِ تَغْرُقُ مَخْدَتَهَا.

رَأَتْهَا تَدَخِّنُ بِشْرَاهَا وَتَتَحَدَّثُ مَعَ غُرْبَاءِ فِي التَّلْفِينِ بِمِیَاصَةِ ثُمَّ
تَغْلِقُ الْهَاتِفَ وَتَنْزِعُ الْفَيْشَةَ مُسْتَغْفِرَةَ اللَّهِ وَتَجْرِي إِلَى الْحَمَّامِ لِتَتَوَضَّأَ.
رَأَتْهَا تَحَدِّثُ نَفْسَهَا كَثِيراً، تَحْسَبُ لِكُلِّ لَفْتَةٍ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ حِسَاباً،
تَفَكِّرُ فِي الزَّوْجِ وَلَا تَجِدُ رَجُلًا يَتَحَمَّلُ ظُرُوفَهَا.

لَمْ تَكُنْ أَمَهَا تَسْتَطِيعُ الْجُلُوسَ فِي الْبَلْكَونَةِ حَتَّى لَا تَظُنَّ الْجَارَاتِ
أَنَّهَا تَشَاغَلُ أَزْوَاجَهُنَّ، لَمْ تَكُنْ تَسْتَطِيعُ زِيَارَةَ أَيِّ مِنْ صَدِيقَاتِهَا خَوْفًا
مِنْ نَظَرَاتِ الطَّمَعِ فِي عِیُونَ الْأَزْوَاجِ رُبَّمَا كَانَتْ تَبَالِغُ فِي ذَلِكَ، لَكِنِّهَا
اسْتَسَلَمَتْ لَهُ حَتَّى صَارَتْ وَحِيدَةً بِلَا صَدِيقَةٍ وَلَا جَارَةٍ تَزُورُهَا.

مِنذُ صَارَتْ دَالِیَا مَرَاهِقَةً وَهِيَ مُشْغُولَةٌ بِالْجِنْسِ الْآخَرَ، ذَلِكَ
الْعَالَمِ الْغَرِيبِ عِنْدَهَا الْمَثِيرِ جَدًّا بِالنَّسْبَةِ لَهَا، فَشَلَّتْ فِي أَكْثَرِ مِنْ قِصَّةِ
حُبِّ حَتَّى أَصْبَحَتْ تَخْشَى أَنْ یَكُونَ الْفِشَلُ لَعْنَةً وَرَثَتَهَا عَنْ أَمَهَا.
غَرِقَتْ فِي عَمَلِهَا بِالْكَوَابِرَاتِ حَتَّى أَتَقَنَّتِ الْمِهْنَةَ لَكِنِّهَا ظَلَّتْ
تَبْحَثُ عَنْ نِصْفِهَا الْآخَرَ.

وَفِي مَجْتَمَعَاتِنَا یُرْبُونُ الْفَتَاةَ عَلَى أَنَّهَا نَاقِصَةٌ مَا لَمْ تَجِدْ هَذَا النِّصْفَ
لِتَكْمَلَ بِهِ عَوَارِهَا الَّذِي یُظَلُّ مَلَازِمًا لَهَا لَوْ لَمْ تَقْتَرَنَّ بِرَجُلٍ.

أَسْأَلُهَا: یَعْنِي إِحْنَا أَنْصَاصُ؟

تَجْتَاخِنَا مَوْجَةٌ مِنَ الضَّحْكَ وَتَبَادُلُ الْقَفْشَاتِ وَیَنْزَاحُ الْمَهْمُ رَوِیْدًا
رَوِیْدًا عَنِ قَلْبِي وَأَسْأَلُ دَالِیَا عَنِ صَدِيقِهَا ذَلِكَ الَّذِي لَمِیْحَتْ لِي أَكْثَرَ
مِنْ مَرَّةٍ أَهَّا تَحِبُّهُ.

تجيب داليا: الحكاية طويلة يا ونسة أنا كملت الثلاثين وبدأت
أعنس وجاري البحث عن عريس، صحيح أنا حلوة وشاطرة وكسبية
لكن سوق العرسان زفت.

سوق؟

أيوه سوق للأسف.

تحكي داليا لي عن أكرم الذي تعرّفت عليه بالصدفة وتوطّدت
صداقتهما على الفيس بوك كانت تعلم منذ البداية إنه متزوّج،
صارحته بأنها تخشى أن تتطور علاقتهما فتفقد كصديق ولكنه
طمأنها وتواعدا على الأخوة والصداقة الخالصة وعلى أن أحدهما لن
يؤذي الآخر، ولن يؤذي طرفاً ثالثاً لا ذنب له في قريهما.

وتمر الأيام لتقرّب بينهما أكثر يتحدثان أحياناً بالساعات، صور
كل منهما تأخذ بلب الآخر. والخيال الذي يسيطر عليهما يخلق ودّاً
والتشابه يمد حبلاً للوصال.

يقول لها كلاماً عذباً و يغازلها بشهوانية أقرب للحب.

تتوه في علاقتهما لم تعد تجد لها اسماً هل هي حب أم افتتان
وشهوة؟ هل هو احتياج متبادل؟

وفيما يحتاجها رجل متزوج من امرأة جميلة تحبه؟

ظل يخالها حتى رضخت له، واستجابت لمشاعر إلكترونية لم
ينطق فيها بكلمة حب.

لكنها تشعر به تشعر حين تراه على الشاشة أن جزءًا منها قد حضر.

سألتها وهي تحكي:

وآخر هذه المشاعر الأليكترونية يا داليا هاتتجوزوا؟ تخربي بيت واحدة تانية؟

لا يا ونسة لا والله أموت قبل مااعملها، أنا دُقت مرار الطلاق مع أمي، عمري ما أتسبب في خراب بيت أو أذى لِسِت زَيِّي.

- طب عايزة إيه منه؟

- ولا حاجة.

تدمع عيون داليا وهي تستطرد ملتاعة شارحة لي كيف أن من يجب حقًا لا ينتظر إلا سعادة المحبوب، وأنها لا تريد شيئًا منه إلا أن يكون موجودًا بجوارها؛ بكلمة بسؤال، بفضفضة.

سيمنعها ذلك عن العلاقات الطبيعية الأخرى هكذا يقول الطبيب النفسي الذي استشارته.

- فليكن، أنا مقدرش على فراقه.

أمام كل خمس رسائل منها يرد برسالة.

يصرِّح أحيانًا بفرحته بها ويلمِّح أحيانًا أخرى بغرام مستتر.

ولا تعلم إلى متى تستمر قصتها معه فلا يريد أحدهما إطلاق رصاصة الرحمة وكتابة كلمة النهاية حتى الآن.

أقول لها بإصرار: إنـت لا هـيئة ولا رخيصة يا داليا، تستحقـي
أفضل من كده ده راجل متجاوز بينقطك على البعد باهتمامه وحنانه.
ترد بأنه بالنسبة لها كالمال تمامًا، قد تموت إذا لم يكن معها،
لكنها تقنع بالقليل منه، وعندما يأتيها تنفقه على غيرها أحيانًا تجعل
نفسها أميرة بفلوسها وأحيانًا تعيش على الكفاف.

اندهش لكلماتها وهي التي طالما نصحتني بالتعقل في الحب.
تواصل حكاياها وهي تحتضن المخدرة قائلة إن مشكلتها الكبرى
أنها كلما نوت قطع هذه العلاقة الغريبة التي ليس منها أمل أو رجاء
أو شفاء تفشل.

تسبل عيناها وتهمس يا ونسة. إنـت متعريفش تأثير الحب
المكتوب.

أسألها أن تصفه لي فتسهب في الوصف وتشرح برومانسية بلهاء
تفوق رومانسيتي مع مصطفى كيف أن الحب المكتوب في رسائل
يملك محالب تحيي الذكريات وهي رميم، فعندما يطلق المحبوب كلامًا
عبر الهاتف، أو يدبج الغزل والمديح ليلقي به في أذن الحبيسة، أو
يستجيب لمشاعرها بهمسة أو ابتسامة جميلة.

تظل هذه المشاعر والاستجابات تنخر في قلب من يجب، وكأنها
تقول له: كنت يومًا تملك الدنيا والآن صرت مفلسًا منبودًا، فما بال
لو كانت الكلمات مسجلة ومكتوبة وبالإمكان استعادتها بتواريجها
وأيامها بضغطة على جهاز كمبيوتر أو تليفون محمول، ساعتها بدلاً
من أن تكون هذه المكاتيب دليل غرام قد تتحوّل إلى شواهد على أن

طرفاً ما كان يكذب ويدلّس وآخر كان ينتظر الحب الحقيقي ويلقمه
من بين السطور ليعتصره كرضيع وجد ثدي أمه.

دخلت أم عزة علينا ونحن غارقتان في حديث الحب فقلنا إنها
جاءت في وقتها تماماً.

وهي ضحكت ضحكتها المألوفة التي يخرج معها شقاء السنوات
مخلوطاً بعزم وإرادة لا تلين.

قالت بتحدٍ: لو واحدة منكم حبّت أو لقيت عريس تعالوا
شخّوا على قبري.

الحب يا أمّات عقل صغير بحره واسع، رجّالة الأيام دي مش
من الحبيبة اللي بتشوفوهم في السيمة.

تحدّرنّا ألاّ أحد يفكر إلاّ في لذة عابرة أو علاقة سريعة، أما
الزواج والاستقرار فمسألة أخرى خالص.

لا نأخذ كلامها مأخذ الجد رغم أنّها تقوله ناصحة، وتشدّد
وتعيد وتزيد فيه لكننا لا نملك إلاّ الانقياد لمشاعرنا، رغم ما تتوعدنا
به تلك المشاعر من آلام وجراح.

تجلس لتشرب معنا القهوة التي أعدّتها وتلح عليها داليا في التسرية
عنا بقراءة الفنجان.

يعود الرجل الأسمر الطويل ذو الشارب الخفيف والذي له معي
معرفة قديمة للظهور في فنجانني كما تؤكد أم عزة أشيخ لها بيدي غير
مصدّقة فهذه الأوصاف لم أقابلها ولا أتذكر صاحبها ثم أعطيتها

ظهري لتمسك بفتحجان داليا وتقول إن الأيام القادمة تحمل لها
مفاجآت عديدة وأن سكة سفر في انتطارها.
ينقبض صدري فليس لي غنى الآن عن إحداها.

إن ماقدرتش تضحك ماتدمعش ولا تبكيش
وإن مافضلش معاك غير قلبك
اوعى تخاف مش هتموت هتعيش
وان سألوك الناس عن ضي جوه عيونك ماويلمعش
ماتخبيش
قولهم العيب مش فيا ده العيب في الضي
وانا مش عاشق ضلمه ولا زعلت الضي
مسير الضي لوحدده هيلمع
مسير الضحك لوحدده هيطلع
مابيجرحش ولا يأنديش

كنت في حجرتي أستمع لتلك الأغنية، لا أستطيع مغالبة
دموعي، ها هو مصطفى هجري، ها هو يشعري مرة أخرى أني لا
أملك سوى جسد فيه الطمع، لم يترفق بمشاعري التي أيقظها ولا
بمستقبلي الذي تلاعب به.

أنظر إلى وجهي في المرآة، فأرى عشر سنوات أضيفت إلى
ملاحمي، أنظر بداخلي فأجد فأراً كبيراً يجلس متربّعاً ينظر إليّ بتحدٍ
قائلاً: حقيتي يا ونسة من الفئران؟ بقيتي إنسانة سويّة؟
أرد بتردّد: أيوا بقيت سويّة.

يضحك طويلاً حتى تغطّي ضحكاته على صوت غيظي وآهاتي
المكتومة، ثم يقول ونسة أنت خفيت لكن مش قوي ياعزيزتي

- إزاي؟

- انت بقيت شبهنا.

- أنا؟

- خوآفة، جبانة، بتسرقي متعتك في الحب.

- أنا؟

- فين ونسة بتاعتت زمان اللي تقول للأعور في عينه يا أعور؟
ينتهي الحوار بيني وبين الفأر الذي يتحوّل فجأة إلى صورة دكتور
خالد، ثم أفيق من الحلم.

في يوم من أيام وحدتي قرّرت أن أعود للجامعة ولصديقاتي
وعندما فتحت باب الشقة لكي أبحه إلى الجامعة فوجئت بممس
أمامي وقد أصبح فأراً يميل إلى الشيخوخة، لم أكن أصدّق عيني،
رفعته من فوق الأرض وقبّلته يبدو أنه نجا من المذبحة وعاش تلك
السنوات متنقلاً بين الشقق.

سألته عن أحواله فدمعت عيناه وأخبرني أنه لم يهنأ له طعام ولم يشعر بخنان بعدي وأنه نجح بمعجزة، كان قد تعرّض لرش قليل قبل أن يتمكن من القفز من شبّاك المطبخ حيث تصادف وجوده وحده وقتها بحثاً عن قطعة جبن رومي كانت قد أفلتت مني في الصباح، كان يريدتها على سبيل النقنقة حتى يحين موعد الغداء، لكنها أنقذته من الموت الذي لحق بأسرته كلها وبأصدقائه، وبفضل موهبته في الاختباء والجرى واصل حياته بين المواسير وفي المناور.

تزوَّج أكثر من مرة وأنجب وكلما أخذه الحنين كان يأتي إلى هنا ويحدّثني ليلاً من خلف الباب، كان يخشى عليّ أن يفعلوا بي كما فعلوا المرّة السابقة بسبب الفئران.

-لهذا كنت أحلم به أحياناً وأشعر أنه يحدّثني.

أخبرته عن حلمي به وبأنني فهمت معناه وبأن لا مصطفى ولا عشرة من أمثاله قادرين على إعادتي إلى ونسة الخائفة المدعورة المريضة فقط ستعود ونسة الجريئة تقول للأعور في عينه يا أعور.

قال إنه يعرف كل أخباري وأنه في هذه الليلة غلبه النعاس أمام باب شقتي ولم يستطع العودة إلى المنور.

-طلبت منه ألاّ يتركني مرة أخرى.

-هنا بيتك يا فار يا عجوز إدّيني بس ساعة زمن وراجعة.

تركته وأمامه الطعام وخطفت رجلي لمشوار سوق السيدة عيشة فقد صار لا بد منه.

هذه المرة ستكون وليفة فقط لإيناس "ممس" في أيامه الأخيرة أي أنه زواج ونس كذلك الذي يحدث في دور المسنين بين النزلاء والنزيلات أحيانًا، فلا بد أنه عجز وقطع الخلف.

والأهم أنه لا مجال الآن لملء شقتي بالفئران فأمامي دراسة وعمل، وهم "ما يتلم"، هذا غير صاحبنا الذي رأته أم عزة في الفنجان والذي قد يظهر في أيّة لحظة ليخطفني على حصان أبيض، وتبيّن كرامة لأم عزة قبل موتها.

كنت في الطريق أفكر في كل ذلك حين داهمني خاطر أضحكني حد الدموع، أيكون ممس هو المخلوق الذي رأته أم عزة في الفنجان؟ أضحك وأستمر في استلهام المواصفات التي قالتها ساخرة فهو ذكر، أسمر اللون، طويل بالنسبة للفئران على الأقل على مستوى الذيل وبالطبع له شارب وهو بالتأكيد معرفة قديمة.

يا جمال فنجانك يا أم عزة وحلاوته!!!

سيرة ذاتية

سامية بكري مبروك محمد

محل الإقامة: القاهرة

بكالوريوس الإعلام - قسم الصحافة - كلية الإعلام
جامعة القاهرة

كاتبة صحفية ومساعد رئيس تحرير بمجلة حريتي

محررة لصفحات المواقع الاجتماعية والثقافة بمجلة
حريتي وجريدة الجمهورية

درست الكتابة القصصية بورشة الحكاية وما فيها

حاصلة على جائزة إحسان عبد القدوس للقصة القصيرة
دورة ٢٠١١

لها كتاب عن الكتابة الساخرة على الفيس بوك بعنوان
ظرفاء الفيس بوك صادر عن دار العين ٢٠١١

كتاب مشترك مع ٦ كاتبات مصريات و٦ سويديات بعنوان
"لاشئ للرجال فقط" عن المرأة المصرية والثورة ٢٠١٣

مجموعة قصصية بعنوان "رقصة مؤجلة" صادرة عن
الهيئة العامة لقصور الثقافة "تحت الطبع"